ميثم الجنابي

الحركة الصدرية ولغز المستقبل

إشكالية اللاهوت الشيعي والناسوت العراقي
















مكتبة الإكسير الإلكترونية
Al-Exir Electronic Library

الكتاب: الحركة الصدرية
ولغز المستقبل

تأليف: ميثم الجنابي

الطبعة الأولى 2012 م
عدد النسخ: 1000
عدد الصفحات: 96

دار ميزوبوتاميا
طبع - نشر - توزيع
بغداد - شارع المتنبي
Email
mazinboox@yahoo.com
Mazin24@ymail.com

التنفيذ والإخراج الفني والغلاف: دار صفحات - دمشق

ميثم الجنابي

الحركة الصدرية ولغز المستقبل

(إشكالية اللاهوت الشيعي والناسوت العراقي)



2012

المحتويات

المقدمة

لقد مر هذا الكتاب بمرحلة غربلة رافقت مسار "تيار الصدر" و"التيار الصدري" و"الحركة الصدرية". ومع كل تطور وانعطاف، وتقدم وتراجع، وظهور وضمور، جرى تدقيق وتحقيق الفكرة والموقف مما في هذه الحركة من نيات وغايات وآمال وأعمال يصعب تحديدها أحيانا بمعايير المنطق. بحيث جعل ذلك منها لغزا!

ولا غرابة في الأمر! فالمسار السياسي للحركات الناشئة تحت ثقل الركام الهائل للحطام التاريخي ومعاناة البشر الساعية للخروج من تحت أثقاله المرهقة، عادة ما يجعل من الصعب الحكم عليه بصورة جازمة. خصوصا إذا أخذنا بنظر الاعتبار، بان الشيء الأكثر جوهرية في الحركة الصدرية مازال يكمن في الكمون الغائر في أعمق أعماقها. من هنا اختياري لعنوان (الحركة الصدرية ولغز المستقبل).

فالتيار الصدري يسعى لتمثل تاريخ عريق من المواجهة والتحدي والثأر. مما جعل منه تيارا يحتوي بقدر واحد على معاناة العقل والوجدان. من هنا فاعلية التناقض الدفين فيه. وإذا كان بالإمكان النظر إلى هذا التناقض على انه قوة فعالة بالنسبة للحركة السياسية، فانه يتسم أيضا بقدر هائل من الخطورة في مراحل الانتقال العاصفة كالتي يمر بها العراق. فالتناقض الضروري بين العقل والوجدان المميز للحركات المستقرة هو ليس نفسه بالنسبة للحركة التي لم ترتق بعد إلى مستوى الحزب السياسي الاجتماعي. وهي المهمة التي يقف أمامها التيار الصدري أو سيقف أمامها بالضرورة. وعلى كيفية حلها سوف

يتوقف مساره اللاحق. وشأن كل تيار سياسي تتوقف إمكانية نموه أو ضموره على مدى استعداده لتمثل فكرة المستقبل بأبعادها الاجتماعية.

والكتيب الذي أضعه بين يدي القارئ يهدف ليس فقط إلى إضاءة مختلف الجوانب المحيرة في الحركة الصدرية، التي أثارت وما تزيل تثير مختلف المواقف المتعارضة والمتناقضة، بل والى رسم معالم لغزها بمعايير المستقبل.

ميثم الجنابي

مقتدى الصدر

ميتافيزيقيا "الثورة" الصدرية

إن العاطفة الهوجاء في حنين الصبايا قد لا تكون اشد غلوا من عاطفة الأحزاب الخشنة في امتلاك ما تريد، غير أن لكل منهما وجدانه الخاص وتاريخه الشخصي. وبقدر ما ينطبق ذلك على الهيام والغرام، فانه ينطبق أيضا على الثار والانتقام. وهي حالة تتكشف في مجرى تبلور الشخصية السياسية وبروز قيمها الدفينة، والتي لا يمكن الحكم عليها بصورة نهائية إلا بعد انتهاء الطاقة السياسية الكامنة فيها. إذ سيكشف هذا "الانتهاء" عن طبيعة وحجم أثرها الفعلي بالنسبة لكينونة التاريخ الواقعي للدولة والأمة.

فالشخصية السياسية ليست كينونة أخلاقية، ومن ثم لا معنى للنظر إليها بمعايير الواجب والمقدس. إن الشخصية السياسية هي صيرورة المواقف العملية. ومن ثم فان البحث العلمي سوف يقف دوما أمام إشكالية الثابت والعابر، والحقيقي والوهمي، والتاريخ واليوطوبيا فيها. أما قيمتها الذاتية فقد تكشف بالارتباط مع حقيقة دورها الفعلي بالنسبة لمصير الدولة والأمة والثقافة.

إن الشخصية السياسية وثيقة الارتباط بالماضي. بل في الأغلب هي نتاج له. لكن قيمتها الفعلية تبقى على الدوام جزء من "مشاريع الغيب"، أي المستقبل. من هنا تفاهة ولحد ما سخافة الاتهامات التي تكيلها مختلف القوى السياسية لشخصية مقتدى الصدر. فعوضا عن أن يجري تناولها باعتبارها جزء من صيرورة العراق السياسية المعاصرة، وكينونته الفردية ضمن إطار العائلة الصدرية وتراثها العقائدي والفكري

والسياسي والروحي، فانه جرى ويجري الحكم عليه بمعايير الرؤية الأيديولوجية والسياسية الضيقة. وليس مصادفة أن تلتقي مختلف التيارات المتناقضة في موقفها منه وتتشابه في تقييمها إياه!! فعندما نتأمل ونتفحص ما كتبته وتكتبه الصحافة "اليسارية" و"اليمينية" والقومية (العربية والكردية) والطائفية (السنية ولحد ما الشيعية) والأمريكية والصهيونية، فإننا نقف أمام تشابه والتقاء غريب! أما في الواقع فانه لا غرابة في الأمر، وذلك لان كل هذا التشابه يعكس أولا وقبل كل شيء طبيعة "اللغز" الكامن في شخصية الحركة الصدرية.

وغرابة اللغز الصدري لا تقوم في شخصية الصدر لحاله، ولا حتى في الحركة الصدرية ككل، بقدر ما تقوم في طبيعة اللغز العراقي وحجم الخراب المادي والمعنوي، الذي وجد سبيله إلى هذا الكم الهائل من التشويش والتشويه المادي والمعنوي في العقل والضمير والواقع.

فعندما نضع شخصية مقتدى الصدر على طاولة تشريح حياته الشخصية، فإنها تبدو بسيطة ومباشرة ولا تعقيد فيها. بل يمكن رؤية ملامحها في حركاته وجلوسه ونطقه. تماما بالقدر الذي كان يمكن رؤيته في نموه السريع وخروجه من بين الركام الهائل للمأساة العراقية بدعوته الأولى والصريحة لجمع كل طاقة الرثة الاجتماعية وقواها المتناثرة والمجزأة والمهمشة في "جيش" يستتير بعقيدة "الغيب" القادم. وهي الصورة التي كان يمكن رؤية ملامحها المثيرة للشفقة والاعتزاز في خطوات أولئك الشباب الموشحين بالسواد وهم يترنمون فيها و"يتبخترون" على تطاير الأتربة من وقع أقدامهم المليئة بالثقة، كما لو أنهم يريدون أن يقولوا للعالم الذي رماهم على أطراف العاصمة وهم صانعوها: إن العالم وما فيه غبار تحت أقدامنا!

وبرز هذا التحدي العريق في العراق للمرة الأولى بصورة استفز فيها القوات الأجنبية الغازية، وقوات المرافقين لها من أحزاب وأشخاص، وبقايا حوزة علمية مختبئة في تقاليدها وتقليدها، وفلول السلطة المنهارة. فقد وجد كل منهم في شخصية الصدر وتصدر الحركة الصدرية لصدارة التحدي العنيد "شبحا" مثيرا للهجاء والسخرية. ويكشف هذا الواقع عن كمية ونوعية الاغتراب العميق في العراق. لكنها حالة "طبيعية" بالنسبة للانحطاط. فالانحطاط لا يفقه معنى التحدي، لكنه يتحسسه بمقاييس السخرية والاستهزاء. وليس مصادفة اشتراك جميع هذه القوى في استغرابها لمقتدى الصدر وإطلاق مختلف النعوت عليه من اجل تحجيم صعوده "المفاجئ" وقوته القاهرة في منافسته إياهم. ولم تكن هذه النعوت والأوصاف معزولة عن نفسية وذهنية المؤامرة والمغامرة المميزة للقوى السياسية التي رافقت قوى الاحتلال دون أن تتمتع بقدر ضروري من الاستقلال والحكمة العملية. كما لم تكن هذه الحالة بدورها معزولة عن التجزئة الفعلية والعميقة بين "عراق الداخل" و"عراق الخارج". فالأول كان من حيث هواجسه ورغباته جزء من قوى الاحتلال، بمعنى انه كان محكوما برغبة الارتماء في أحضان السلطة والتمسك بأقدامها. بينما كان "عراق الداخل" هو سديم الحركة الكامنة في تاريخ الاحتجاج والمعاناة القاسية لعراق المدن الخربة والأرياف المنهكة. من هنا استغراب القوى الخارجية بفعل اغترابها عن العراق، وكذلك الحال بالنسبة لاستغراب "الحوزة العلمية" بسبب ارستقراطيتها المتلفعة بعباءة "السادة العلوية"[1].

1- إن العلم السياسي النقدي العراقي بحاجة إلى تحليل وتجريح فلسفي وثقافي وتاريخي وروحي لظاهرة "السادة" من اجل تذليلها الفعلي ونفيها وإزالتها من واقع العراق وبنيته الاجتماعية والسياسية والروحية. فهي ليست منافية

غير أن الصدر يتفوق عليهم جميعا بمآثر العائلة وتراثها الفكري والروحي والسياسي والأخلاقي. ووجد هذا التفوق تعبيره أيضا حتى في أرذل الصيغ تهكما وابتذالا في الإساءة إليه، التي حاولت أن تستغفل الوعي العادي بأنه لم يكن مشهورا قبل الاحتلال الأمريكي للعراق، وان أحدا لم يسمع عنه شيئا، وانه لم "يتعلم" ولم يبلغ درجة "الاجتهاد"، وان أقصى درجة بلغها في "العلم" هي "طالب بحث خارجي". ومن ثم لا يمكن فهم سرّ هذه الشعبية الكبيرة التي حصل عليها بين ليلة وضحاها سوى ما تفتحت به قريحة "النيوزويك" التي اعتقدت أن من الضروري، بل ينبغي فهم هذا السرّ بمعايير "العصابة". وكتبت بهذا الصدد تقول، بأنه "ينبغي النظر إلى مقتدى الصدر، باعتباره رئيس مافيا شاب. ولأنه يسعى لكسب الاحترام فهو مستعد للقتل من أجل تحقيق غايته". وهي صيغة تعكس مستوى التخلف العقلي والذهني في تناول إشكالية صعود الشخصيات السياسية، ومستوى التسطيح الفج في التحليل. لكنها مع ذلك الصيغة الأكثر انتشارا وقربا إلى أفئدة الصحافة العربية والعراقية الغاطسة في وحل الطائفية السياسية والعرقية و"اليسارية" و"الليبرالية".

ومن الممكن رؤية هذه الصورة على صفحات الانترنيت أيضا من خلال عرض "الأفلام الوثائقية" والكاريكاتير ومختلف "الصورة البيانية"، إضافة إلى مختلف الصور الشخصية المشوهة لملامحه الخارجية، أي كل ما يهدف إلى تسطيح الوعي وتخزين اللاوعي بترهات "العقل الماكر" ورذيلة الكراهية والحقد.

ومناقضة لشخصية الإمام علي وتاريخ الفكرة العلوية، بل وتشكل امتهانا أخلاقيا وروحيا أبديا لها. دعك عما فيها من سقوط في وحل العبودية النتن وتقسيمها البشر إلى طبقات "السادة" و"العبيد".

وحالما نضع هذه الصيغ ضمن السياق التاريخي الفعلي لمقتدي الصدر والحركة الصدرية، فإننا نستطيع من خلالها رؤية ضحالة "الفكر النقدي" وطبيعة الكراهية المعمرة للقلوب الخربة! وذلك لان كل الصور السلبية والتشهير الفض ما هي في الواقع سوى الوجه المقلوب لفضيلة الصدر وشخصيته القوية ونموذجه الشعبي الأصيل.

إننا نقف أمام شخصية ظهرت من بين ركام الانحطاط والتخلف والفئات المقهورة. انه وليد نفسه، واردته الفردية، وقوة التقاليد الحيوية للمواجهة والتحدي، والخروج على المألوف، وعدم الانحناء أمام عاصفة الغزو وشهوة الارتماء تحت أزيزها من اجل التلذذ بنشوة المنتصر! ومن ثم لم تكن "قسوة" و"خشونة" مظاهره سوى الصورة الواقعية عن حقيقة الصدر الفعلية، بوصفه ابن المدن المهمشة والخربة. انه ليس سليل "النعومة" المخنثة "لرجال الدين"، كما انه ليس "نجم" السرقة المتمرسة بتقاليد الرياء الديني. ومن ثم لا تعني "عدم تعلمه" اجترار المعلومات الميتة، سوى فضيلته الحية. فهو يعمل ويفكر وينطق ويجتهد بحدسه الشعبي والعراقي، بوصفه الطريق الواقعي لصنع الواقعية، والعقلي لصنع العقلانية، والاجتماعي لصنع المدنية، والشعبي لصنع العراقية. كما أنها كانت المكونات التي وضعته أمام مهمة الإفتاء الفعلي تجاه قضايا الحياة السياسية بشكل خاص.

بعبارة أخرى، إن مختلف المحاولات المستميتة لإماتة صفاته المعنوية المغرية لا تفعل في الواقع إلا على إبراز صورته الفعلية. وتحتوي هذه الصورة الواقعية على قدر هائل من المصداقية. فشخصية مقتدى الصدر بلا لمعان مصطنع. إنها ارض العراق الخربة ومهلهلي مدينة الثورة. وعندما تلصق الجماهير لقب "الصدر" بمدينتهم، واعتزاز

احدهما بالآخر، فإن ذلك دليل على طبيعة التماهي بينهما. إن مرجعية الصدر هي مدينة "الثورة" وليست "آيات الله" القابعة في سراديب الفقه الميتة، ودهاليز الخديعة والمكر "الإلهي" للمؤسسات التقليدية المغلقة. وفي هذا كانت تكمن المرجعية التي تحتوي في أعماقها على ميتافيزيقيا "الثورة" الصدرية[2]، التي جعلت من بؤسها التاريخي تاريخ البأس "المتسامي". وليس مصادفة أن يظهر فيها وليس في الكوفة أو النجف شعار "جيش المهدي".

فالتقاليد الكبرى لا يمكن حصرها في المكان. وهي فكرة سبق وان تبلورت منذ زمن سحيق في تقاليد الوجدان الشيعي القائل، بان كل مكان للقتال والتضحية من اجل الحق، وكل مكان تتجسد فيه معالم المأساة هو "كربلاء". وكربلاء ليست حصرا على من فيها أو يعيش على ما في تراثها من تضحية ومأساة. ومن ثم كان بإمكان مدينة الثورة أن تنسخ بكربلاء الثورة.

فقد جسدت مدينة الثورة بوصفها حزام البؤس التاريخي للعاصمة هذه الحالة النادرة! إذ لم يكن بإمكان بغداد أن تعصم "ثورة تموز لعام ، مما جعل من المدينة محلا للتلاعب اللاحق. وليس مصادفة أن يسعى صدام لإطلاق اسمه عليها. لقد أراد مصادرة الشعلة القائمة في أعماقها من خلال تكبيل تاريخها بقيود الزمن الدكتاتوري. بحيث أدى هذا الوهم بدوره إلى إنتاج أوهام المعارضة المقدسة. كما أنها الحالة التي لم يكن بالإمكان توقع صيرورتها في شيء آخر غير "انتظار" الخلاص الأبدي من الظلم والحيف والمهانة. من هنا ولع "المهدي المنتظر" في أعماق النفس المسحوقة.

2- المقصود بذلك مدينة الثورة.

لكن تاريخ المدينة كان يحمل في أعماقه، بفعل السحق الدائم لمكوناتها، على قدرة إنتاج مساحيق "الثورة". من هنا احمرار الأعلام في خمسينيات القرن العشرين واسودادها في بداية القرن الحادي والعشرين. وتعكس هذه المصادفة تاريخ الكفاح من اجل الحق بما في ذلك في رمزيتها، أي رمزية السيل الدائم للدماء القانية في ارض السواد! خصوصا إذا أخذنا بنظر الاعتبار أنه السبيل الذي جعلت منه التوتاليتارية البعثية والدكتاتورية الصدامية أخدودا عميقا في الذاكرة والذكرى العراقية. من هنا جبرية "المهدي" بوصف قدر الانتظار الأبدي للخلاص من معاناة الروح والجسد.

فقد كان "المهدي" وما يزال وسوف يبقى في انتظار أعدائه وأحبائه. كل منهما يرتقبه ويترقبه بطريقته الخاصة. من هنا سرعة المبادرة التي أعلنها مقتدى الصدر في الإعلان عن "جيش المهدي" وتشكيل "فرقه وأفواجه". وهو إعلان له دلالته السياسية عندما نضعه ضمن سياق "ميتافيزيقيا الثورة" القابعة في نفسية الانتظار وذهنية الخلاص وتاريخ البؤس الاجتماعي والقمع الدكتاتوري. فقد اجتذبت هذه الميتافيزيقا بمغناطيسها المغري جزيئات الثورة المتناثرة والمجزأة في أزقة المدينة وخرائب العراق الهائلة. وفيها ومن خلالها يمكن رؤية الاستعادة المفاجئة للتاريخ المهدور، والخروج العنيف للقوة المكبوتة وطاقة الاحتجاج، والصعود الوجداني للأمل. وليس مصادفة أن يتحول مقتدى الصدر من "شخصية مغمورة" إلى قائد وقور بسرعة خاطفة. وفي هذا يكمن سر البحث عن "الجهل" وعدم "التعلم" وما شابه ذلك عند التيارات الشيعية المنافسة. والسبب بسيط للغاية وهو انه ابن "الثورة" وسليل العائلة القابعة في الضمير العراقي والمعارضة العنيفة للدكتاتورية. بينما اتهمه الغزاة وأعوانهم وبقايا الصدامية والطائفية

السياسية السنية الهائجة بمختلف أصناف التهم، بحيث وجدوا فيه تجسيدا حيا "لفرق الموت" والقتل الطائفي، أي كل ما كان يتشكل ويتراكم في سياسة الاحتلال وحشرجة الطائفية السياسية للصدامية وبقايا صداها وصدأها.

لقد جعلته هذه الحالة غريبا بين الغرباء! إذ لم يكن بإمكان قوى "الخارج" المغتربة، وقوى الصدامية الغارية، وقوى الاحتلال الغربية، إدراك الحقيقة البسيطة القائلة، بان "صعود نجم" الصدر لم يكن مفاجأة أو صدفة عابرة أو لمحة طارئة بقدر ما كان جزء من مصيره الشخصي المجهول، وحلقة في مصير عائلته المعلوم.

فقد ولد مقتدى الصدر وترعرع في أوج السيطرة الدكتاتورية وانحلالها المعنوي (1973 – 1999). أنها المرحلة الممتدة بين ولادته ومقتل أبيه. ذلك يعني انه ترعرع في أوج القوة المتنامية للدكتاتورية والعائلة الصدرية. وحمل هذا الصعود في أعماقه حتمية الصراع والمواجهة، أي الحتمية الكامنة فيما يمكن دعوته بالفترة التكوينية لشخصيته الباطنية والظاهرية. فقد كانت حياته وشخصيته الأولى محكومة من جهة بإرث العائلة، كما وجدت صداها في تربيته وتعلمه أول الأمر على يد أبيه محمد صادق الصدر، ولاحقا على يد آية الله الحائري (وهو بدوره احد تلاميذ محمد باقر الصدر). ذلك يعني أن مرجعيته التكوينية (الباطنية) كانت في أبيه وخاله. وهي مرجعية شيعية عراقية عربية. بينما كانت حياته المحكومة بقبضة الدكتاتورية ومراقبتها التامة بعد مقتل أبيه هي الوجه الظاهري. وهو وجه لا مرجعية فيه لأنه جزء من حياة الأفراد ولعبة المصير!

غير أن اللعبة الكبرى والحقيقية لمقتدى الصدر تقوم في المصير الذي كان يختمر في جبرية الحياة السياسية للعراق المعاصر، وأثر العائلة

وتقاليد الروح الشيعي. ومنهما وفي مجراهما تبلورت شخصيته ومقوماتها النفسية والأخلاقية والعقائدية والسياسية. فمما لا شك فيه أثر مقتل والده وأخوته الاثنين على مجرى حياته العامة والخاصة. بينما لعبت حياته اللاحقة (بعد السادسة عشرة) دورا مهما في بلوره نفسيته السياسية، وبالأخص حالة الإقامة الجبرية مع والدته وشقيقه. وهي مكونات يصعب حصر أثرها بسبب كثرتها وفظاعتها، لكنها "مألوفة" معروفة لكل مكونات العراق وأجياله في مجرى أقسى وأرذل عقدين في تاريخه الحديث، أي ثمانينيات وتسعينيات القرن العشرين. وهما عقدان جعلا من كل ما في العراق مستعدا للتحلل والاندثار. بحيث أوصلت التوتاليتارية البعثية والدكتاتورية الصدامية العراق والمجتمع والثقافة إلى حالة مغلقة ومزرية بصورة تامة. لكنها كانت في الوقت نفسه العقود التي تراكمت فيها طاقة الاحتجاج والكراهية المطلقة للسلطة، بحيث أصبح اليأس من إصلاحها حالة المرء الباطنية والظاهرية. من هنا انفجار تيارها اللاعقلاني مع أول بادرة لهروب قواتها المنخورة. الأمر الذي جعل العراق يثور بطريقة اقرب ما تكون إلى الجنون كما لو انه شعر للمرة الأولى في تاريخه الحديث بإمكانية الرجوع إلى ذاته وكنس كل تلك القذارة النتنة للصدامية وارثها الدموي. وأثارت هذه الحالة "جنون" الانهماك في النشاط السياسي واندفاعه صوب كل ما يمكن لليد أن تصل إليه. أما الأفئدة والقلوب فإنها "تسامت" صوب المطلق. ولا مطلق في العراق بعد سقوط الصدامية سوى الثار منها. وهي نفسية تتمتع في تاريخ العراق بتقاليدها الثقافية والعقائدية الخاصة، التي يمكن تحسس ملامحها في إحدى خطبه التي قال فيها: "قد قررت أن أتخذ طريق أجدادي وفق عقيدة الإسلام الأبيّ الحرّ الذي لا يقبل بالضيم والظلم والاستكبار والاستعمار، وطّنت نفسي ومعي العديد من

العراقيين أننا علينا أن نفكر بديننا وشعبنا أولا، ومن ثم نفكر بمصرنا". وكرر هذا الموقف لاحقا في مجرى المواجهات العنيفة بينه وبين سلطة الاحتلال "العراقية"، عندما قال بتاريخ 21 نيسان 2004: "لا تستخدموا موتي أو اعتقالي ذريعة لكي لا تكملوا ما بدأتم"! وهي صورة يمكن مقارنتها بشخصية المختار وهو في مواقفه الأخيرة يواجه بقواه الشخصية وأتباعه القلائل جيوش مصعب بن الزبير في الكوفة. حيث اعتبر الخروج من معاقلهم المحاصرة والموت في ميدان المعركة الصيغة المثلى للمواجهة والتحدي والدفاع حتى النهاية عما كان يدعو إليه. وهي الحالة التي واجهها مقتدى الصدر و"جيش المهدي" في معارك النجف. غير أن التاريخ لم يستنسخ ما جرى بحذافيره، بل نسخه بمواقف التحدي الواقعية، بوصفها الدراما التي مازالت تفعل فعلها في واقع العراق السياسي، وتشكل بخطوطها العامة استمرار لصراع ما يمكن دعوته بتيار غنيمة الزمن العابر وتيار التضحية والانتقام التاريخي.



غنيمة الزمن العابر
وتضحية الانتقام التاريخي

للتاريخ مآسيه وعبره. ومهما حاولنا الإشادة بها وتقديمها حسب قواعد ما "ينبغي القيام به"، فإنها لن تجدي نفعا ما لم يجر تجريبها بوصفها عنصرا أو طبقة من عناصر أو طبقات التراكم الضروري في منظومة القيم السياسية والاجتماعية للدولة والأمة. وهي الحالة التي يمكن اعتبار الصدر والحركة الصدرية احد نماذجها الحية.

فقد نشأت هذه الحركة الكبرى من صلب الواقع العراقي وزمن الانحطاط الشامل فيه. من هنا احتواءها على كل متناقضات الوجود التاريخي للعراق المعاصر. لكنها تناقضات تحتوي في أعماقها بالضرورة أيضا على صعود الحالة المتصادمة لنفسية وذهنية "الداخل" و"الخارج"، بوصفها الحالة الوجودية والمعنوية والأيديولوجية لتيارات مصطنعة لكنها فعلية بسبب سيادة الزمن التوتاليتاري والدكتاتوري. فقد صنع هذا الزمن مقدمات التجزئة والانحطاط، بحيث جعل من سيادة الأطراف والهامشية والأقلية في تاريخ العراق الحديث والمعاصر أمرا ممكنا . مع ما ترتب عليه من إضعاف وإنهاك لفكرة المركز الثقافي والمركزية الدولتية، وبالتالي صعود الغرائز وأولوية الجسد والعائلة والقبيلة والجهة، أي كل أشكال البنية التقليدية، ومختلف أشكال الصراع الهمجي.

ولعل "أعلى" النماذج "المتسامية" لهذه الظاهرة يقوم في بروز صراع وتناقض "الداخل" و"الخارج" في الفكرة الوطنية. لكنه صراع واقعي وفعلي، وذلك بسبب طبيعة الانقطاع في الفكرة الوطنية وتهشم

الفكرة العامة في ظل الإحكام المطبق للدكتاتورية وقمعها الشامل. فقد كان اللاضم الفعلي للكلّ هي قوى القهر والإجبار. لكنها قوى لا تصنع في الواقع غير آلية التجزئة. وحالما تستحكم في بنية السلطة، فإنها تتحول إلى "سياسة" تشمل كل شيء. أما النتيجة فهي الغربة والاغتراب في الوجود والموجود، التي واجهها العراق بعد سقوط السلطة الصدامية، عارية كما هي.

فقد كان إسقاط السلطة الصدامية بالنسبة للولايات المتحدة جزء من إستراتيجيتها الخاصة ومصالحها الكونية. من هنا استحالة تناسق العملية الاجتماعية والسياسية لإعادة بناء الدولة والأمة مع الخطة الأمريكية المتقلبة من البحث عن "أسلحة الدمار الشامل" إلى "الإطاحة بالدكتاتورية" إلى "بناء الديمقراطية" و"نموذج الدولة العصرية في الشرق الأوسط". وهو سبب ظهور وتوسع وتراكم مختلف نماذج الصراع غير العقلاني. فقوى الداخل هي كمية من الاغتراب الاجتماعي الهائل، بينما قوى الخارج هي نوعية الاغتراب الشامل. من هنا استحالة الاتفاق والوفاق والائتلاف والتآخي والاتحاد وما شابه ذلك من صيغ هي الوجه الدعائي للتعويض عن فقدان الاتفاق والوفاق والائتلاف والتآخي الاتحاد. ولم يكن بإمكان هذه الحالة أن تنتج بعد سقوط الدكتاتورية المفاجئ غير مختلف نماذج الهياج اللاعقلاني. ويدأ ذلك بنهب وسرقة وحرق كل ما كان يواجه أو يعترض الجسد الفردي والجماعي، ومطاردة كل ما كان يثير في الغريزة شهوة الاندفاع حتى النهاية. من هنا تحول اندفاع قوى "الخارج" صوب مراكز القوة والسلطة والمال ومن ثم تصنيع نفسية الغنيمة، بينما كان اندفاع قوى "الداخل" يعادل صيرورة التكون والنشوء والنمو العاصف. وهي عملية كانت تعي نفسها وتتحسسها على أنها مواجهة وتحد واستمرار لقيم التضحية، مع ما يرافقها بالضرورة من

شعور "متسام" للانتقام والثأر. وشأن كل تناقض واختلاف من هذا القبيل له مقدماته المشوهة في تاريخ العراق الحديث والمعاصر، الذي أعطى له الاحتلال الأمريكي طابع الهجوم الكاسح.

لقد تحول رجوع قوى الخارج المعارضة إلى رجوع قوة مغترية وكاسحة من اجل السلطة، بينما كان صعود قوى الداخل أشبه ما يكون ببركان هائج. من هنا سرعة الاتهام الواضحة والجلية لمعارضة "الخارج" تجاه قوى "الداخل". لقد وجدت قوى "الخارج" نفسها بمكان العائلة الصدامية وقصورها وثرواتها وسطوتها. من هنا احتقارها للقوى التي نشأت من رحم الحياة العراقية. وهي الصيغة الجلية في نمط ونوعية الازدراء السياسي والتفسير المتسرع والاحتقار المبتذل للصدر والحركة الصدرية وغيرها من حركات العراق الفعلي.

لقد كان تناقض قوى "الداخل" و"الخارج" هو تناقض بين نفسية الغنيمة وذهنية التضحية. فالغنيمة هي الصفة الملازمة لهجوم الأقلية المحكومة بنفسية وذهنية السرقة، بينما التضحية هي التزام الأغلبية تجاه نفسها بمعايير المستقبل. وهي عملية طبيعية تاريخية يمكن تأملها في تاريخ كل التحولات العاصفة للدول. إضافة لذلك أنها العملية الوحيدة القادرة، في حال نشوء النخبة المواكبة لها، على إرساء أسس الرجوع إلى مكونات الدولة والأمة، وفي الحالة المعنية إلى مكونات العراق الجوهرية، وبالتالي تحديث وعصرنة منظومة التراكم الثقافي ومرجعياتها المتسامية والعملية المتعلقة ببناء الهوية. وشأن كل عملية معقدة ومتناقضة لا يمكن حلها إلا بصعود فكرة الأغلبية. وفي ظروف العراق الحالية والمستقبلية القريبة لم يكن بإمكانها أن تظهر بصورة غير صورة الأغلبية الشيعية. من هنا يمكن فهم سر الصعود السريع والمفاجئ والعنيف للحركة الصدرية.

لقد كانت الحركة الصدرية، حركة الأغلبية المهمشة، وقوى الداخل العراقي. وهي الحالة التي بدت غريبة ومفاجئة ومشوهة بالنسبة لأعين القوى السياسية التي تعودت على التعامل مع العراق وواقعه في "جلساتها" و"مؤتمراتها" في القصور والفنادق المدفوعة الأجر من جانب الدول الأجنبية وأجهزتها الأمنية واستخباراتها العسكرية. إذ لم يكن بإمكانها توقع "منافسة" اجتماعية سياسية، لان السياسة بالنسبة لها هو تحزب لا علاقة له بالمجتمع، وسياسة هي عين المؤامرة والمغامرة. وليس مصادفة أن تتحول شخصية الصدر والحركة الصدرية إلى ميدان كل التجارب الممكنة والمحتملة للصراع العقلاني واللاعقلاني. وتكمن أسباب هذه الظاهرة في كون الحركة الصدرية هي تيار الداخل، وتيار المواجهة للمحتل، وتيار التضحية الوجدانية والاجتماعية، وتيار الانتقام التاريخي، ولغز المستقبل. كما أنها مكونات متراكمة ونامية ضمن سياق الصراع السياسي العنيف الذي ميز مرحلة سقوط الدكتاتورية وظهور مختلف الاحتمالات والإمكانيات القائمة في صلب الاحتراب العراقي الدفين.

فقد أثارت الأبعاد الذاتية للحركة الصدرية بوصفها تيار الداخل العراقي، ردود الفعل الظاهرة والمستترة التي حاولت كل بمقدار ما فيها من "نقص عراقي" تبرير بقاياه المقلقة للعقل والضمير والوجود. فالأغلبية تتفق وتتوافق وتتآلف وتتحد وتتآخى على عدائها المبطن والعلني للحركة الصدرية. والجميع تحس بحكم الغريزة والجسد والتجربة والمصدر الداعم لديمومتها بالجذور العراقية الأصيلة للحركة الصدرية. من هنا استغرابهم من ظهور شخصية مقتدى الصدر والحركة الصدرية المفاجئ، وتحولهما إلى قوة عارمة ورمز من رموز التيار العراقي العام، بحيث أصابت بالحيرة اغلبهم. من هنا عدم رؤيتهم

فيها شيئا غير كونها "حركة تخريبية" وقوة معرقلة "للديمقراطية"، أي أنهم لا يريدون "منافسا" و"معارضا"!! لكن إذا كانت الأدوار والقدرة لا تناط بالرغبة، فان الصدر والحركة الصدرية أخذت تمد جذورها وتمتد في أصقاع العراق، وتمتص رحيق وجودها من وجوده المهمش والخرب. وهي حالة متناقضة ومشوهة لحد ما، لكنها جلية جلاء الحركة وأتباعها.

فقد استغربت قوى "الخارج" إمكانية نشوء حركة "بين ليلة وضحاها"، وبروز مقتدى الصدر ذو الثلاثين عاما بإمكانياته "العلمية المحدودة"، على خلفية "كوكبة من السياسيين العراقيين المعروفين بتاريخهم النضالي". وهي عبارة تحتوي فيما يبدو على استمرار مبطن يطابق بين "التاريخ النضالي" والمعرفة! ولكي لا تكون هذه العبارة محل استهزاء وسخرية من هنا عادة ما يجري إلصاق الجهل بالصدر من اجل إبراز "العلم" المبطن لشخصيات لا تتعدى حقيقتها في أفضل الأحوال وصف "أنصاف المتعلمين".

وبما أن السياسي في العراق لا يتفاخر بالعلم والمعرفة بسبب قدرتهما على إثارة الشكوك، من هنا يقين "تيار الخارج" بان سرّ الصعود الفعلي للصدر والحركة الصدرية ينبغي البحث عنه في "الخارج". والمثير في هذا "الدليل" هو اشتراك القوى المناوئة جميعا على اعتبار إيران هي المصدر! بعبارة أخرى لقد وجدت قوى الخارج في إيران مصدر العصا السحرية التي جعلت حركة من كان لا شيء كل شيء! وتعكس هذه النتيجة تاريخ "تيار الخارج" الذي تعود على استمداد قوته من الخارج!

فقد ارتبطت هذه القوى من الناحية التاريخية والسياسية بقوى خارجية عديدة، اغلب الأحزاب الشيعية بإيران، والشيوعيون بالاتحاد

السوفيتي أولا و"بالامبريالية" الأمريكية لاحقا! أما الحركات الكردية فقد كان وما يزال ارتباطها متشعبا لا يحكمه شيء غير منظومة الضعف الذاتي والاستعداد السافر للارتماء بأحضان القوى الخارجية. من هنا سجلها الكبير، من الاتحاد السوفيتي إلى إيران، ومنهما إلى تركيا وسوريا، ومن وراءهما جميعا إلى إسرائيل والموساد، وأخيرا إلى ارتماء عبودي مطلق تحت أقدام الولايات المتحدة. ليس هذا فحسب، بل أن جميع هذه القوى جاءت إلى سدة الحكم بفعل الغزو الأمريكي وعلى حرابه ودباباته وتحت غطاء نيرانه "الصديقة"! من هنا غرابة الاتهام "الديمقراطي" و"الليبرالي" للحركة الصدرية بارتباطه بإيران! ولنفترض أن الأمر له نصيب من الصحة، فلماذا يصبح الارتباط بالخارج معقولا ومقبولا لهم وغير معقول ومرذول لغيرهم!! لكنها مفارقة تضمحل بسهولة بسبب ما يمكن دعوته بمنطق الخروج على التاريخ والحقيقة والحق، أي منطق "أهل الخارج".

فقد كانت وما تزال "قوى الخارج" مدعومة وممولة بقوة السلاح والمال الأمريكي، الذي تبدو "المساعدات الإيرانية" أمامه شيئا زهيدا وتافها. لكن الاتجاه العام لضعف قوة "الخارج" وازدياد قوة "الداخل" هو النتاج الطبيعي لتناقض ما أسميته بنفسية الغنيمة المحكومة بالزمن العابر، وذهنية التضحية والانتقام التاريخي.

ويستمد هذا الاختلاف والتباين والتناقض مقوماته من تاريخ العراق الحديث وطبيعة الخلل الفعلي في بنية الدولة والنظام السياسي ووعيه الاجتماعي والثقافي. وقد جعل هذا الخلل من الممكن تجاهل أو انعدام القدرة على رؤية مصادر الإبداع الفعلي للواقع العراقي، وليكن في بعض مظاهره مناف للعقل والعقلانية.

إن "قوى الخارج"، أي قوى الغنيمة العابرة تعجز عن رؤية إمكانية العراق الذاتية. من هنا شكوكها بما فيه، ويقينها بعقمه الذاتي! كما لو أن الوليد "الشرعي" الممكن و"الوحيد" هو أما دكتاتورية الأطراف الهامشية أو "نيازك" "المناضلين" المتساقطة في ظلماء الزمن الخرب للعراق! وما عداها "نغل" الدعم الإيراني!! أنها رؤية القلوب الخربة والعقول المرعوبة والأنفس السيئة! لقد تعودت على "مساعدة" الخارج، من هنا عجزها عن رؤية البدائل الممكنة من داخل العراق، كما لو أن تاريخه الحقيقي هو تاريخ "الخارج".

لقد نشأت الحركة الصدرية وظهرت من تحت ركام مدن العراق المهمشة والخربة والأرياف التالفة، وعقود الزمن الدكتاتوري، والعنف الاجتماعي، والعوز الاقتصادي، والحروب الداخلية والخارجية، والحصار، والظلم والضيم والشقاء والبؤس المادي المعنوي. فهي المصادر الفعلية، أو العصا السحرية لصعود التيار الصدري. وفيها أيضا يكمن سرّ كونه تيار المواجهة للمحتل. وهي المواجهة التي تحسستها قوى الاحتلال فيما يسمى بمقتل عبد المجيد الخوئي، التي بلغت ذروتها المكشوفة بعد عام من الاحتلال، في مجرى معركة النجف الكبرى في أواسط شهر مايس عام 2004. وفيها ومن خلالها تكشفت طبيعة وحجم الخلاف "المستقبلي" بين الحركة الصدرية والاحتلال الأمريكي.

وليس مصادفة أن تتراكم الصورة "البشعة" للصدر في المخيال السياسي الأمريكي، الذي وجد انعكاسه النموذجي في مانشيت أسبوعية نيوزويك الأمريكية في عددها الصادر بتاريخ ديسمبر التي رسمت على غلافها صورة لمقتدى الصدر تجعله اقرب إلى الخيال الشعبي المشبع بنماذج الكليشات الأمريكية المسطحة عن القتلة

والمجرمين. ولم يكن عنوانها "أخطر رجل في العراق"، سوى المظهر النموذجي لرؤية "الخطر" الكامن والقادم بالنسبة للمشاريع الأمريكية في العراق. وقد حددت هذه الرؤية في اغلب جوانبها الدعاية الأمريكية والمواقف العملية من الحركة الصدرية من حيث كونها إحدى القوى العراقية الكبرى المعادية والمواجهة للاحتلال. وليس مصادفة أن تجري المطابقة بين "فرق الموت" و"جيش المهدي". رغم الخلاف الجوهري بين الاثنين. ففرق الموت هي لعبة أمريكية، بينما "جيش المهدي" فكرة عراقية. من هنا سخافة الفكرة الأمريكية التي ترسم ملامح "جيش المهدي" بمعايير العصابات والمافيا من خلال مطابقة مهمته مع نماذج الابتزاز المميز لعمل المافيات الصغيرة، مثل جباية الأموال مقابل توفير الحماية الشخصية للمواطنين (مثل أن يدفع أحد الأشخاص دولارا في الشهر مقابل حمايته!! إضافة إلى استيلائه على محطات الوقود واسطوانات الغاز والخمس التي تجمع في المساجد!) وتتسم هذه الصورة بقدر كبير من السذاجة المدبجة للقارئ الأمريكي. خصوصا إذا أخذنا بنظر الاعتبار أن "شركات الحماية" الأمريكية (شركات المرتزقة ومحترفي القتل) تدفع وتستلم المليارات مقابل الابتزاز الدائم للدولة والسلطة والمجتمع والمستقبل العراقي!

غير أن الدعاية الأمريكية المحكومة بالسياسة العملية الهادفة إلى إضعاف الجميع عادة ما تبرز بعض الجوانب اللاعقلانية المتأججة في مجرى الصراع الدموي واستعماله عند الحاجة تجاه هذا الطرف أو ذاك. وقد كانت الحصة الأكبر من هذا النمط الدعائي السياسي موجه ضد الصدر والحركة الصدرية. بحيث جرى تحويل الصدر من ممثل التيار الوطني العربي العراقي العام إلى ممثل "التطرف الشيعي الطائفي" في مواجهته "للسنة". رغم أن ردود فعل التيار الصدري كانت

في اغلبها محاولة لتحجيم التيار التكفيري والأصولي المتطرف والإرهابي المسلط على رقاب العزل والمواطنين العاديين. وقد خاض هذه الحرب على جوانب المجرى العام للفكرة الصدرية التي تضع أولوية العداء للاحتلال، وجوهرية القرار الوطني العراقي المستقل. وليس مصادفة فيما يبدو أن يشترك التيار الأصولي التكفيري الإرهابي ومختلف نماذج الطائفية السياسية السنية في التقييم العام والخاص للحركة الصدرية مع المواقف الأمريكية وتقييمها. والسر يكمن في أن الحركة الصدرية كانت من حيث شروط ظهورها التاريخي والسياسي تمثيلا نموذجيا لما أسميته بتيار الانتقام التاريخي، أي تيار الانتقام والثأر التاريخي من الطائفية السياسية للدكتاتورية الصدامية وزمن الإجحاف التاريخي لفكرة الدولة والأمة والمواطنة، أي كل ما وجد انعكاسه في ظهور وتبلور نفسية وذهنية الأقلية الحاكمة والمتسلطة والأغلبية المحكومة والمقهورة. ومن ثم لم يكن تقييم وممارسات الطائفية السياسية السنية بمختلف نماذجها العلنية والمستترة سوى الصيغة الأيديولوجية لفقدان السلطة والسطوة. من هنا أولوية وجوهرية عدائها للحركة الصدرية. فالعداء للاحتلال الأمريكي هو مجرد شكل من أشكال المراوغة والمزايدة العلنية. لكنها مزايدة بدون رصيد وطني واجتماعي فعلي. من هنا طابعها الدموي التخريبي والمعادي للفكرة الوطنية والعربية الجامعة.

فالتقييم والصور التي تتفنن بها الطائفية السياسية السنيّة في موقفها من الصدر والحركة الصدرية عادة ما تعدو حذو النعل بالنعل لما ترسمه الدعاية الأمريكية مع تلوين فاقع! ولكن من خلال إبراز ما تدعوه بالدور الإيراني. وهو "دور" عادة ما يتخذ صيغة الهوس الأيديولوجي، بحيث جرى تركيب مختلف السيناريوهات الهادفة إلى شيء واحد - الاتهام والشتيمة! بل جرى رفع إيران والدور الإيراني إلى

مصاف القوة العملاقة الوحيدة القادرة على إدارة شئون الحرب والسلم في العراق! بعبارة أخرى لقد حولوا إيران إلى شيطان العبث الشامل في العراق، بحيث تبدو الولايات المتحدة مقارنة بها ملاكا صغيرا. أما الدول العربية، فإنها مجرد أقزام عليلة أو هباء منثور! وهي صورة شنيعة لا مخرج لكمالها بغير البحث عن الأصول الإيرانية لمقتدى الصدر! وقد كانت تلك صيغة اقرب ما تكون إلى المواقف العنصرية المعجونة بطائفية سياسية تتعارض من حيث الجوهر مع فكرة العراقية والقومية العربية الثقافية. ومن ثم لا تعني هذه المواقف والتقييمات سوى الصيغة الظاهرية لطبيعة وحجم الانحطاط الشامل في الفكرة السنيّة الطائفية، بوصفها استعادة متخلفة للأموية القديمة. أما من الناحية السياسية، فان تضخيم الدور الإيراني ما هو في الواقع سوى الوجه الآخر لفقدان السلطة الطائفية. فالعدو الجوهري من وراء هذه الاتهامات والمواقف الأيديولوجية هو شيعة العراق، أي القوى التي "صادرت" سلطة الطائفية السياسية السنّية. وبالتالي لا تعني فكرة القضاء على "الصفوية" في العراق سوى استعادة السلطة المفقودة. بمعنى أن محركها لا علاقة له بالوطنية والقومية والدين. على العكس أنها تقف في تعارض شامل مع هذه المكونات. الأمر الذي جعل من مواقفها تجاه الحركة الصدرية اقرب ما يكون إلى خليط غريب للنزعة العنصرية والطائفية. من هنا لم يكن بإمكانه صناعة شيئا غير مسخ الكراهية العمياء والانجرار وراءها، كما نراه في نوعية وكمية الأساليب الإرهابية التي جرى "ابتداعها" وتنفيذها ضد الأحياء والأموات أيضا!

إن تحول الحركة الصدرية إلى هدف التجريح والتشويه، والنقد والاتهام، والشتيمة والحقد، والابتزاز والمؤامرة، والمواجهة والصراع، والقتل والإبادة، يعكس ما أسميته بتمثلها لتيار التضحية الوجدانية

والاجتماعية. ويستمد هذا التمثل مقوماته من واقع العراق وتاريخه العريق. بمعنى انه يتمثل بقدر واحد مأساة الحاضر وذكراها المنقوشة في أعمق أعماق الضمير والوجدان، أي كل ما كان يتراكم ويتهذب ويتشذب في الروح والجسد والتضحية والانتقام. وهي المكونات التي تمثلت تاريخ العراق وأقوامه، أي أجياله المتناسخة في كافة الميادين والمستويات. وليس مصادفة أن تتصدر "بؤرة" التشيع التقليدي في "حوزتها العلمية" ومؤسساتها التابعة موجة المعارضة الخفية ضد الحركة الصدرية، عندما انطلقت من ألف باء "العلم" باتهامها الصدر بمختلف الأوصاف المبتذلة عليه، وانتهاء بحبك مختلف المؤامرات الصغيرة والكبيرة ضده. وبدأت هذه المؤامرات بإصدار منشور يسعى لتحصين الإرث التقليدي للعائلات الدينية المتسيدة، باسم "أبناء النجف الشرفاء"!! يتناول تحديد حد وحقيقة "جيش المهدي" بوصفه تطاولا على ارثها المقدس! وقد ورد فيه العبارات التالية "يتألف (جيش المهدي) من عناصر مشبوهة لفوا رؤوسهم بخرق بيضاء وسوداء لإيهام الناس على أنهم رجال دين بينما هم في الواقع مجرد شياطين... الإمام المهدي لا يحتاج إلى أي جيش من اللصوص، النهابين، والمنحرفين تحت قيادة أعور الدجال".

لقد تحول "جيش المهدي"، أي شباب الأرياف والمدن الشيعية المسحوقة إلى لصوص ونهابين ومنحرفين! أما قياداته الوسطى فمجرد "عناصر مشبوهة" لفت على رؤوسها خرق بيضاء وسوداء! بينما تحول قائدها إلى "دجال اعور"! وهي توصيفات وتشبيهات لها دلالتها السياسية والثقافية والاجتماعية. فقد كان يشق على المؤسسة التقليدية رؤية هؤلاء المهلهلين يتطفلون على "علومها" وموقعها وتأثيرها الروحي والسياسي والاجتماعي. فقد وجدت البنية التقليدية للمؤسسة الدينية

الشيعية وعائلاتها في الجموع لصوصا، وفي قيادتها شياطين، وفي قائدها دجالا اعور! وهو عين التقوقع السياسي والاجتماعي والثقافي عمن تتهالك المؤسسات التقليدية لتقديم نفسها بوصفها ممثلهم الشرعي الحقيقي الوحيد! وتعكس هذه الظاهرة ما يمكن دعوته بالصيغة "الروحية" الملطفة والعادية لنفسية وذهنية الدكتاتورية المتغلغلة في كل مسام الوجود العراقي. من هنا تخوفها وهلعها من صعود "الغوغاء" وظهور "الدجال"، أي من القوة القادرة ليس فقط على مشاركتها زكاة الروح والجسد، وخمس الأعمال والنيات، بل واحتمال استبدالها بطور وجيل آخر. وهي الفكرة التي كانت ملامحها تلوح في العبارة المقتضبة للحركة الصدرية التي وجدت في نفسها ممثلة "الحوزة الناطقة"، أي النفي العملي "للحوزة الصامتة".

لقد بدت الحركة الصدرية كما لو أنها عنقاء الثورة التي أخذت تنافس من خلال تمثلها وتمثيلها "للحوزة الناطقة" و"المهدي المنتظر" مختلف مؤسسات وأشخاص "المرجعية الدينية". إذ وجدت هذه المؤسسات والأشخاص في الحركة الصدرية منافسا شاملا لها هو عين "الدجال الأعور"! وليس مصادفة أن يبدأ الصراع بين الحركة الصدرية وتيار "المرجعيات" التقليدية بعد يوم من سقوط السلطة الصدامية وبروز شخصية عبد المجيد الخوئي وعلي السيستاني. فقد كان الأول "ليبرالي" الخارج الموالي للسيطرة الأمريكية، بينما كان الثاني سليل البنية التقليدية الهادئة وتقاليد التقية. من هنا ابتداء الصراع بمقتل عبد المجيد الخوئي، الذي جرى توجيه أصابع الاتهام فيه للحركة الصدرية. وسوف يقتل لاحقا الكثير بما في ذلك "شهيد المحراب". بعبارة أخرى، أنها ظاهرة لا علاقة للحركة الصدرية بها بقدر ما أنها كانت تشكل بعض مظاهر التضحية الحتمية "للانتقام التاريخي"، أي

احد مظاهر البركان الاجتماعي الهائج. فعندما جرى قتل الخوئي في نيسان ، فان الأعين "الفاحصة" للاتهام المبتذل توجهت صوب البحث عن "أسراره" في "الصراع حول قبر الإمام علي وسرقة محتوياته"! وقد لا يخلو هذا الواقع من صواب نسبي، لكنه لا علاقة له بحقيقة المجرى العام للاندفاع العارم للأغلبية من اجل تجسيد نفسها بأسرع وقت في ظل الفراغ الهائل الذي استتبع سقوط الدكتاتورية الصدامية. وهو فراغ ملأته قوى "الخارج" المندفعة شأن السيول وقت الأمطار العاصفة، بينما كانت حصاة السلطة السابقة تتدحرج حيث يأخذ بها المجرى، بين مسحوق ومكسور ومندثر ومرصوص في البناء الهش للجرف الأجوف! أما البسيطة العراقية، أي المعمورة بذكرى الحياة ومآسيها والخراب الشامل، فإنها ظلت تتعالى وهي تنظر إلى أخدود السلطة الجديد على جسدها المنهك. لكنها قادرة في نهاية المطاف على تحويله إلى جزء من تضاريسها. وهو الوصف البياني للحركة التاريخية الشائكة والمتعاركة من حيث آفاقها واحتمالاتها في ظروف الانتقال المعقدة للعراق من زمن التوتاليتارية والدكتاتورية إلى تاريخ الدولة الشرعية والمجتمع المدني.

وشأن كل انتقال من الخراب إلى العمران، لا يمكن لعمارته أن تكون نموذجية. على العكس! إن أنموذجه الضروري يكمن في إشراك الجميع بالحركة والبناء. فهي الحالة الوحيدة القادرة على تنشيط عضلاته الجسدية وخلاياه العقلية. وقد تجسدت هذه الحالة بصورة نموذجية في صعود الحركة الصدرية وأمثالها في ظروف العراق الجديدة. وذلك لأنها كانت تتمثل بصورة تلقائية عملية التحول العاصف. وهو السبب الجوهري الذي أثار لغط الحديث وسفاهة الاتهام وابتذال التقييم حول "سر" و"لغز" الحركة الصدرية. لكنه لغز يمكن فهم أسراره في ظاهرة التقاء بقايا السلطة الصدامية ومعارضة الأمس

المتربعة على سدة الحكم في العداء للحركة الصدرية، أو الاستهجان المشوه من جانب مختلف الحركات المناهضة للاحتلال والنظام السياسي الصنيع في ظروف العراق الحالية التي لا ترى في الحركة الصدرية شيئا غير أداة من أدوات السياسة الإيرانية في العراق، أو يدها الضاربة في معاركها الجانبية مع الولايات المتحدة. ومن الممكن العثور على إحدى الصيغ النموذجية لهذا النوع من التحليل في المقالات والأبحاث التي حاولت وتحاول تحديد مواقفها وتقييمها للحركة الصدرية بمعايير الرؤية "الجيوسياسية" الإستراتيجية، أي تلك التي تحاول تحديد مضمون الحركة الصدرية بوصفها لعبة أو أداة بيد "المحافظين الإيرانيين" في صراعهم مع الولايات المتحدة. بينما تشطب هذه المقدمة مسبقا كل خصوصية الواقع العراقي وتاريخه السياسي والاجتماعي الحديث والمعاصر وخصوصية التوتاليتارية البعثية وتخريبها الشامل للعراق.

وارتباط كل ذلك بطبيعة ومستوى وحجم الصراع الإقليمي والعالمي الذي خاضه العراق على امتداد تاريخه الحديث. إضافة إلى عدم أخذها بنظر الاعتبار خصوصية الحركات الإسلامية في العراق وكيفية تشكلها وطبيعة تراثها الروحي والعقائدي والاجتماعي. باختصار، أن الرؤية التي تجعل من صعود الحركة الصدرية وآفاقها جزء من احتراب "المحافظين الإيرانيين" مع الولايات المتحدة هي مجرد تبسيط فج وتسطيح مفتعل للأحداث بمصطلحات "الجيوسياسة" . إن كل التناقضات المميزة للحركة الصدرية هي جزء من تناقض العراق وانحلال مرجعياته الوطنية والاجتماعية والثقافية والسياسية في مجرى سيطرة واستحكام التقاليد الراديكالية بشكل عام والدكتاتورية الصدامية بشكل خاص.

أما في الواقع، فأن "لغز" الحركة الصدرية هو جزء من "لغز" العراق الحالي، أي من كمية ونوعية التناقضات الهائلة والمتحركة فيه، التي تجعل من الصعب حد وتحديد ما يجري فيه بطريقة "منطقية" خالصة، بما في ذلك رصف أحكام التقييم الجازمة والدائمة والثابتة. وسوف تبقى هذه الظاهرة والحالة لفترة زمنية طويلة نسبيا. لكن مسارها العام يتوقف على طبيعة التحولات اللاحقة في بنية الدولة والسلطة والمجتمع والاقتصاد والثقافة، وكذلك على طبيعة التحول المحتمل في الحركة الصدرية نفسها. فهي المعادلة المعلقة على آفاق المستقبل. بمعنى أن إمكانية تعليقها على كعبة البدائل يتوقف على كيفية كتابة وغناء أبياتها. وحالما تكتمل قصيدة الحركة الصدرية، حينذاك يمكن معرفة ما إذا كانت معلقة حقيقية أو مجرد كلام منظوم من قاموس اللغة، بلا وجدان ولا عرفان! أي بلا إبداع ذاتي!



مقدمات المعترك السياسي والأيديولوجي للحركة الصدرية

ليست الصيغة البيانية السابقة سوى "المفتاح" الحسي لتصوير واقع وآفاق الحركة الصدرية. فمن بديهيات الأمور القول، بان الحركة الصدرية من حيث مقدماتها هي نتاج الانحطاط الشامل للعراق والتمرد عليه. وبهذا المعنى فأنها تتمثل مشاعر الأغلبية المطلقة في العراق دون أن يعني ذلك تمثلها لمنظومة الحلول العقلانية. ولا غرابة في الأمر في ظروف العراق الحالية. فكل ما في العراق مشكلة، وبمجموعها تشكل إحدى أتعس وأرذل الأزمات البنيوية الشاملة للدولة والنظام السياسي والمجتمع والثقافة والروح والقيم. وإذا أخذنا بنظر الاعتبار اختمارها وانفجارها تحت سيطرة الاحتلال الأجنبي، من هنا يمكن توقع طابعها العشوائي، مع ما يترتب عليه من صعود مختلف أشكال اللاعقلانية.

فقد أثار الاحتلال الأجنبي وسقوط بغداد يوم نيسان كمون الانتقام الداخلي المكبوت ضد السلطة ومؤسساتها وأتباعها ومصادرها. وكان هذا الانتقام يحمل في أعماقه نفسية وذهنية "عراق الداخل". ومن ثم فان هويته السياسية الوحيدة آنذاك كانت هوية "عراق الداخل"، أي عراق الانحطاط الشامل والوجدان الصادق. وقد أنتجت هذه المعادلة المتناقضة والواقعية أيضا، الأبعاد الخاصة بالحركة الصدرية وتحديد معالمها بوصفها تيار الداخل، وتيار المواجهة للمحتل، وتيار التضحية الوجدانية والاجتماعية، وتيار الانتقام التاريخي. وهي تيارات أو عناصر متصارعة في أتون الحركة الصدرية، سوف تحدد الغلبة لأي منها مضمونها الفعلي ومسارها التاريخي وآفاقها المستقبلية. وهنا يكمن دون

شك مضمون "اللغز الصدري" ضمن سياق الحركة التاريخية السياسية للعراق المعاصر. وبالتالي، لا يمكن فهم حقيقتها وآفاقها دون تحليل صيرورتها التاريخية والسياسية والأيديولوجية، بوصفها نموذجا للتيار الراديكالي. لكنها راديكالية خالية من أيديولوجية سياسية واضحة المعالم. الأمر الذي جعل منها ميدانا للتجريب، وبالتالي كيانا قابلا للتهذيب والتشذيب أو التخريب والانحلال. ومن ثم، فإنها على خلاف الأحزاب السياسية الشيعية المستتبة، تقف أمام مفترق الإصلاح المنظومي التدريجي والشامل أو الانهيار والتلاشي.

بعبارة أخرى، إن الحركة الصدرية هي نموذج وميدان التجربة التاريخية التلقائية الجديدة للعراق في كيفية مواجهته لإشكالية الصعود الراديكالي. كما أنها الحركة الوحيدة الكبرى التي تمثلت بعد سقوط التوتاليتارية البعثية والدكتاتورية الصدامية مقومات ومكونات وشروط وآفاق التيار الاجتماعي الراديكالي بعد انقطاع أربعة عقود من الزمن (-). وهنا يكمن سرّ لغزها الحالي والمستقبلي، بوصفها الخميرة التاريخية الكبرى المتراكمة في زمن التوتاليتارية البعثية والدكتاتورية الصدامية. فقد ظهر التيار الصدري بصورة مفاجئة. بمعنى أن ظهوره «الاجتماعي» و«الوطني» و«المعادي للاحتلال» و«المدافع عن المقدسات» وما شابه ذلك، كان الوجه الآخر لتقاليد الماضي في منافستها للقوى الدينية والدنيوية التي جاءت مع قوى الاحتلال وبمؤازرته في تسلم زمام السلطة، والمشاركة الوهمية والواقعية فيها. بمعنى أن الظهور المفاجئ والعنيف للتيار الصدري يحمل في أعماقه بقايا وثقل التوتاليتارية والدكتاتورية.

فقد كان «التيار الصدري» الراديكالي الجديد صنيعة الماضي التوتاليتاري والدكتاتوري، من حيث «تاريخه» السياسي في شخصية

الصدر وهيبتها الروحية التي لم تكن بدورها معزولة عن محاولات السلطة الصدامية صنع بدائل «عربية» للمرجعية الشيعية التقليدية، أي المجردة عن «القومية». ومن ثم كانت مهمتها السياسية إضعاف المرجعية المذهبية «الخالصة»، أي المناوئة أو التي تحمل في أعمق أعماقها نفسية المعارضة وروح الاغتراب الشامل عن السلطة. وقد كانت تلك خطة عادية بمعايير الدكتاتورية الصدامية لكنها غير عادية بإمكانياتها الداخلية على خلفية التهميش الاجتماعي الهائل الذي تعرض له العراق بشكل عام ومناطق الشيعة بشكل خاص.

فقد كان العراق قبيل وبعد سقوط الصدامية كتلة هائلة مهمشة، أي كيان من الحثالة الاجتماعية الرثة في حياتها ومظهرها ونفسيتها وذهنيتها وعلاقاتها الخاصة والعامة وفكرتها عن الحرية، باختصار في كل شيء! وفي ظل حالة من هذا القبيل كان المزاج الاجتماعي مستعدا لقبول أي شكل جديد للراديكالية المناهضة. لاسيما وان المزاج الاجتماعي كان محكوما بتراث يتلذذ للنزعة التوتاليتارية (الأصولية). لهذا حالما انهارت التوتاليتارية البعثية والدكتاتورية الصدامية، فان الرصيد المكبوت للثأر الراديكالي بين هذه الأحزاب والحركات، الذي لم يبدده ارتباطها بقوى الاحتلال، سرعان ما اخذ يتراكم في حركة شعبية عريضة ومباشرة تلقفها واستحوذ عليها «التيار الصدري». لكنه استحواذ لم يخطر على قلب عراقي في حال عدم «ارتقاء» الحركات الدينية والدنيوية صوب التعامل المباشر مع «أعداء الأمس» التقليديين.

ذلك يعني أن الظهور المفاجئ للتيار الصدري وقدرته الملفتة للنظر على استقطاب «الشارع العراقي» بعد سقوط الدكتاتورية الصدامية، لم

يكن في الواقع سوى الوجه الآخر لتراكم الشحنة الراديكالية المقلوبة في المزاج الاجتماعي. فقد تراكمت هذه الشحنة بصورة لا مثيل لها في تاريخ العراق المعاصر، وبالأخص في مجرى الحروب الهمجية التي انتهت صورتها المباشرة بسقوط الدكتاتورية عام .

لقد كان الصعود المفاجئ والسريع والعنيف للراديكالية الصدرية الوجه الآخر للسقوط المفاجئ والسريع والعنيف للدكتاتورية الصدامية، بوصفها الصيغة الكلاسيكية للراديكالية العراقية. مما يعطي لنا إمكانية القول بأنهما كلاهما ينتميان من حيث المقدمات إلى ظاهرة واحدة. ويمكن العثور عليها عند جميع الحركات الراديكالية السياسية في العراق المعاصر. وإذا كان التيار البعثي الصدامي قد جسدها بصورة «نموذجية» على مستوى الدولة في غضون عقود، فإن التيار الصدري قد جسدها في غضون أشهر في المناطق التي استطاع «الاستيلاء» عليها أو مصادرتها . وقد كانت الأساليب والنتائج هي هي ذاتها! إذ نرى نفس العبارة تجاه «العدو الخارجي» و«المحتل»، كما نرى نفس العبارة «الوطنية» الممزوجة بالدفاع عن «المقدسات» و«الإسلام». والشيء نفسه يمكن قوله عن السلطة والدولة. إذ لا تعني السلطة سوى سلطة الفرد الجاهل أو نصف المتعلم. أما الدولة فهي «أنا» المتلبسة مرة بصدام وأخرى بالصدر! أما المجتمع فهو كتلة لا تتمتع بغير حق الانصياع وتنفيذ كل ما تريده القيادة والإمامة بأساليب القوة والعنف. إذ لا مجال ولا معنى للثقافة والعقل!

لكنها كانت في الوقت نفسه حالة طبيعية بالنسبة للحركة الناشئة من أحشاء الانحطاط الشامل والدكتاتورية. فقد تمثل «التيار الصدري» في ظروف العراق ما بعد الصدامية مضمون الراديكالية بأكثر أشكالها

تخريبا وتدميرا. وسبب ذلك يقوم في كونها لم تستفد من تجارب الاضطهاد التاريخي الهائل الذي تعرض له الشيعة. كما أن ممارستها التي ترافقت مع ظهورها السريع على خلفية زوال البعثية الصدامية تشابهت بصورة شبه تامة مع ممارسات التوتاليتارية والدكتاتورية. ومن ثم وضعت نفسها بالضد من المجرى العام للتيار الشيعي والوطني والاجتماعي العراقي. أما الحصيلة فهو الانحدار الدائم صوب الانصهار مع الغلاة الجدد من مختلف التيارات الأصولية. وهي النتيجة التي كانت تسري شأن سريان المياه الآسنة صوب بحر هائج. وهو السبب الذي يفسر سبب نظرتها الضيقة في بادئ الأمر.

فقد كان التيار الصدري في أول أمره مقيدا بنفسية ومزاج وأهواء الحثالة الاجتماعية. مما كان يحدّ من إمكانية نموه العقلاني، كما جعله بالضرورة أسير الحدود الضيقة في رؤيته لآفاق تطوير الدولة والنظام السياسي والمجتمع والثقافة. إذ أننا لم نر ولم نسمع ولم نعثر آنذاك على برنامج «صدري» له علاقة بمكونات الدولة المعاصرة والنظام السياسي والمجتمع والثقافة البديلة للتوتاليتارية والدكتاتورية. ويشير هذا الواقع إلى افتقاد الرؤية السياسية الإستراتيجية وفقدان المشروع السياسي وانعدام الرؤية الواقعية والعقلانية عن طبيعة التغيرات التي جرت في العراق. وليست العبارات العامة عن «الدولة الإسلامية» و«المجتمع المسلم» و«الثقافة الإسلامية» وما شابه ذلك سوى كلمات عامة في حال انعدام تحديدها الدقيق بمعايير الرؤية السياسية والاجتماعية والثقافية، أي في حال عدم وجود برنامج نظري وعملي يحدد بصورة دقيقة الغايات الكبرى ووسائل تنفيذها. أما العبارات التي نسمعها بين الحين والآخر فهي ليست أكثر من صياغة «إسلامية» لأغلب مضامين التوتاليتارية والدكتاتورية.

ذلك يعني أن إدراك «التيار الصدري» لطبيعة التحولات الجارية في العراق وآفاقها كان ضعيفا في بادئ الأمر. ووجد ذلك انعكاسه المباشر في ظاهرة التناقض الحاد بين الاشتراك الجماهيري الفعال والعنيف في السياسة، ورفض الاشتراك «الرسمي» فيها . ولم يعن ذلك في الواقع، سوى محارية الانخراط الفعال في الحياة السياسية الاجتماعية. من هنا بقاءه وبقاء خطابه السياسي ضمن عبارات لا تتعدى في أفضل الأحوال لغة الشعار السياسي المهيج لنفسية الفئات الرثة. وهو توجه كان لابد له من أن يقلص مع مرور الزمن قاعدته الاجتماعية ويجعلها قوة مناهضة لأبسط مفاهيم الحرية والتقدم الاجتماعي. وبدأت الملامح الأولية لهذه الظاهرة تزداد وتتسع ومن ثم تعمق الشرخ السياسي والفكري والمعنوي بينه وبين المجتمع. وكان من الممكن ملاحظة هذا الشرخ الهائل بين المؤيدين والمعارضين له في المدينة والريف، بحيث تحولت الظاهرة الصدرية إلى جزر متناثرة لا يربطها سوى الاستعداد للعنف. وهي عملية مستنفذة بالضرورة لأنها غير قادرة على مواجهة العنف الفعلي القائم في ظاهرة التهميش التي تعرضت لها فئات هائلة من المجتمع العراقي بشكل عام والشيعة بشكل خاص. وكان يمكن رؤية ذلك في الهوة السياسية القائمة بين «التيار الصدري» والحركات السياسية العراقية عموما، بما في ذلك الشيعية. بل أن ما كان يميز «التيار الصدري» قبل تعرضه للضربة القاضية في جولته الأولى ضد القوات الأمريكية والعراقية الرسمية، هو استعداءه للحركات والتيارات والأحزاب الشيعية وخذل زعماؤها التقليديين. وقد عكست هذه الظاهرة الطابع الراديكالي للتيار الصدري، بغض النظر عن نفسية المؤامرة والمغامرة التي كانت القوى المتزاحمة في «مجلس الحكم» الشيعية منها بالأخص تستدرجه لخوض «معركة الشرف» الخاسرة.

وفي هذه العملية كانت تتبين مستوى وحدود وديناميكية الاغتراب السريع بين الظاهرة الصدرية وبين المجتمع.

فقد استطاع «التيار الصدري» أن يستقطب من حيث قواه الاجتماعية كمية الحثالة الاجتماعية الهائلة في العراق المعاصر، مما جعل منه التيار الأكثر نموذجية لتمركز وفعالية هذه القوى. لكنها قوى اجتماعية عراقية معبرة عن حالة عراقية فعلية. أما في وسائله، فقد كان التجسيد الأكثر ضعفا تجاه كيفية إدارة الصراع الاجتماعي والسياسي، وذلك لان «منطقه» الوحيد هو منطق السلاح لا سلاح المنطق. وهي أيضا وسيلة معبرة عن حالة عراقية فعلية. أما في نيته فقد كان يسعى للهيمنة، وهي أيضا نية معبرة عن حالة عراقية فعلية. بينما لم تكن غايته المعلنة عن طرد الاحتلال وغايته الباطنة عن إحلال النظام الإسلامي، سوى وجهان مكملان للرؤية الراديكالية التي لا ترى ولا تسمع ولا تتذوق حقيقة ما يجري في العراق وحوله والعالم.

وفي الإطار العام يمكن القول، بان «التيار الصدري» بوصفه ظاهرة راديكالية يبرهن من جديد على أنها ليست مستعدة على بلورة رؤية سياسية أخلاقية قادرة على تجاوز مفاهيم الفئات المهمشة وتصوراتها وأحكامها لما جرى ويجري. ومن ثم فان ممارساتها ككل لا تفعل إلا على إعادة إنتاج مختلف مظاهر الإفساد والانحطاط والتخلف والاستبداد. مما يشير بدوره إلى طبيعة الضعف التاريخي والثقافي للظاهرة الراديكالية في العراق. ومن الممكن رسم الملامح العملية لهذا الضعف وأثره اللاحق على مجرى العملية السياسية في الموقف من قضيتين شكلتا بعد سقوط السلطة الصدامية عام «مفاصلا» يمكن من خلالهما إدراك حدود الظاهرة الصدرية، والمقصود بذلك «معركة

النجف» و«مفتاح الصحن العلوي»، اللتين لعبتا دورا كبيرا في تاريخ التيار الصدري من حيث كونه ظاهرة راديكالية.

فقد كانت «معركة النجف» الميدان الذي جرى فيه للمرة الأولى اختبار القوى السياسية العراقية بشكل عام والراديكالية منها بشكل خاص. إذ كشفت من حيث مقدماتها ونتائجها عن طبيعة وحجم القوى السياسية المشتركة فيها، وكذلك بنية وغاية كل منها. كما أنها أظهرت حجم ودور الراديكالية السياسية في ظروف العراق الحالية والمستقبلية. وقد كشف الزمن اللاحق عن أثر ومحتوى هذه المعادلة، وخصوصا قبل وبعد الاستفتاء على مشروع الدستور الدائم (نهاية).

فمن المعلوم، أن قيمة الأحداث التاريخية تتحدد بمستوى وكيفية حسمها للإشكاليات الكبرى التي تواجهها الدولة والأمة. وبغض النظر عن المجرى السريع لحسم «معركة النجف» التي دارت رحاها في أيام معدودة بين رجال مهلهلي الثياب بأسلحتهم الخفيفة وقوة تكنولوجية عسكرية هائلة مدعومة بقوات حكومية وتأييد سياسي رسمي ومجافاة شعبية لا تخلو من استياء وشماتة من «السوقية»، أي حثالة المدن والأرياف العراقية. لكنه حسم كان يحتوي في أعماقه على أبعاد لا علاقة لها بالصراع الدامي بين قوات «عقلانية» وأخرى محكومة بتقاليد الاستعداد المتحمس «للمهدي». وحالما التقت الجيوش الأمريكية وجيش المهدي في الأزقة الخربة، فان عجاجها وضجيجها أنتج تلك «الصحوة» المفاجئة بالخروج من مدينة لم تحاصر إلا بقوة التوتر وثقل المرجعيات الواقعية والوهمية لرجال الدين والدنيا. وعندما نترك هذه المقارنة للزمن لكي يكشف عن أبعادها التاريخية الفعلية، فان مما لا شك فيه هو أثرها الكبير والمهم بالنسبة لآفاق وإمكانية الراديكالية السياسية

العراقية الجديدة كما مثلها التيار الصدري. وذلك لما في مقدماتها ونتائجها التي جرت عام   من أهمية بالنسبة لجميع القوى التي كانت وما تزال تمثل الطيف العام للصراع السياسي في العراق.

فقد كانت «معركة النجف» من حيث مقدماتها مرتبطة ارتباطا وثيقا بصراع القوى الاجتماعية والسياسية العراقية من اجل «حسم» موقعها في السلطة الجديدة. كما أنها كانت المعركة التاريخية الأولية الكبرى للراديكالية العراقية التي نشأت من تراكم الأحداث الداخلية. فقد كانت القوة الصدرية القوة السياسية الكبرى، وقد تكون الوحيدة، التي نشأت من تلقائية التراكم الذاتي السياسي والاجتماعي والاقتصادي العراقي. مما أعطى لها زخما راديكاليا كبيرا أيضا من حيث تمثلها وتمثيلها لآمال وأماني وأحاسيس الشرائح الاجتماعية العريضة والمهمشة، أي الأغلبية العراقية التي أخذت تعي نفسها بنفسها بعد سقوط الدكتاتورية الصدامية، وتطالب بحقوقها وشرعية تمثيلها للمصالح الوطنية.

فالوطن العراقي الفعلي كان كمية من الشرائح الاجتماعية المنهكة في حروب الصدامية واضطهادها الرهيب للفرد والجماعة والمجتمع، وانتهاكها المريع لكينونة العراق والعراقيين. ووراء هذا الواقع كانت تختفي مغامرات القوى السياسية العراقية «الخارجية»، التي كان دخولها للعراق اقرب ما يكون إلى هجوم من اجل الاستيلاء عليه. وشأن كل قوى سياسية مغتربة ومتغربة لفترة طويلة لم تكن راغبة تماما به، حالما تبين لها بان الوطن الذي تواجهه ليس الذي تصبو إليه، وان الوطن هو ليس عراق الماضي والأحلام، بل عراق السخام والأسقام، أي كل هذا الكم الهائل من الشرائح الرثة. مما

جعلها تتراوح بين الامتعاض والانزواء. وفي كلتا الحالتين كانت السلطة (مجلس الحكم الانتقالي) فقط ميدان سباقها المحموم بما في ذلك في تمرير السياسية المغامرة من اجل حسم المعارك الجديدة. وبهذا المعنى كانت "معركة النجف" من حيث مقدماتها وغاياتها الفعلية معركة بين القوى السياسية «الخارجية» و«الداخلية»، أكثر مما هي معركة بين القوى الوطنية العراقية والأمريكية الغازية. فقد استدرجت قوات «الخارج» (المعارضة السابقة) قوات الداخل (التيار الصدري) إلى معركة خاسرة. وجرت من جانب «القوى الخارجية» بحكم موقعها المناوئ للسلطة الصدامية وضعف قدرتها الذاتية على إدارة الصراع السياسي والاجتماعي، بينما جرت من جانب «القوى الداخلية» بفعل سكرتها الشديدة من نبيذ الراديكالية الرخيص. أما النتيجة فهي «كسر انف» التيار الصدري. إلا أن مفارقة هذه الظاهرة تقوم في كونها المعركة التي جعلت من التيار الصدري ملاكما جيدا بعد أن فقد شموخ الأنف العظمي ليكسب مرونة المعارك اللاحقة. تماما بالقدر الذي أدت إلى جعله قادرا على تمثل بعض مكونات وعناصر الضمير الوطني العراقي المنافي والمتعالي عن نزوع الطائفية السياسية والعرقية القومية التي أصبحت البضاعة الأكثر رواجا لقوات الخارج «الديمقراطية»!!



الحركة الصدرية – تيار "الداخل" وصعود الباطن العراقي

لقد كانت مختلف مظاهر «معركة النجف» مجرد أشكالا متنوعة لما يمكن دعوته بمعركة النجف الكبرى، أي معركة الرجوع إلى حقيقة الهوية الوطنية العراقية التي لعبت النجف دورا تاريخيا هائلا في بلورة وصياغة عناصرها الثقافية الكبرى. ذلك يعني أنها إحدى الظواهر والمراحل التي لابد منها من اجل شحذ ذهنية ونفسية الأفراد والجماعات العراقية من اجل تكاملهم لاحقا في هوية واحدة تعي ذاتها بمعايير الحق والحقيقة. فقد كان آنذاك من السهل النظر إليها بمعايير الطائفية والجهوية والحزبية الضيقة وما شابه ذلك، لكن حقيقة مداها ومدارها أوسع من جميع الأحكام الجزئية. والقضية هنا ليست في أن النجف «مدينة مقدسة»، بل على العكس تماما! إذ لا قدسية في المدن والأماكن والتواريخ والأحداث. لان حقيقة المقدس تقوم في ما لا يمكن ابتذاله، أي انه شيء لا كالأشياء، مثل الحقيقة والجميل. ومن ثم لم تكن «معركة النجف» سوى إعادة إجلاء جديدة لحقيقتها التاريخية باعتبارها مركزا من مراكز صيرورة الوعي القومي والوطني والثقافي العراقي العربي والإسلامي.

طبعا ليس في هذا الحكم من جبرية ترتقي إلى مصاف الإقرار بالقضاء والقدر، إلا أن مما لا شك فيه أن «معركة النجف» التي هزت الضمير العراقي آنذاك كانت تشير إلى طبيعة وحجم الخلل الكبير الكامن في بنية الدولة العراقية الحالية والسلطة والمجتمع والوعي السياسي للأحزاب والحركات. والمقصود بذلك ضعف القوى

الاجتماعية والسياسية جميعا وانتشار وسيادة ما يمكن دعوته بنفسية المؤامرة فيها. فهي النفسية التي كانت تتركز فيها ومن خلالها أحزمة الخلل المشار إليه أعلاه.

فمن الناحية الظاهرية يمكن النظر الآن إلى «معركة النجف» على أنها خاطئة من حيث قواها ووسائلها ونيتها وغايتها. لكنها نظرة لا معنى لها بمعايير الرؤية التاريخية الدقيقة. وذلك لأن "معركة النجف" كان في الواقع جزء من مستقبل مجهول، أو ما كانت تطلق عليه تقاليد الفلسفة الإسلامية مصطلح «سر الغيب». وهو الغيب الذي بدأت ملامحه تتضح الآن بغض النظر عن مآسيها آنذاك. فالمآسي عرضة للزوال والنسيان، و«معركة النجف» باقية من حيث كونها مرجعية اجتماعية سياسية، أي تجربة ومدرسة كبرى بالنسبة للوعي السياسي، وليس لمرجعية البنية التقليدية التي لا يضفي عليها الزمن شيئا غير غبار التبجيل المتطاير من أنفاس العوام المتعبة وذهنيتهم المتهيبة من كل ما هو عتيق! بعبارة أخرى، إن «معركة النجف» ومآسيها المباشرة لم تظلم العراق من حيث محتواها الباطني! وذلك بفعل «دورها» التاريخي في تذليل النقص الجوهري الذي لازم وما يزال يلازم بناء الهوية الوطنية العراقية والإشكاليات التي تواجهها. والشيء نفسه يمكن قوله عن قضية ما يسمى بمفتاح المرقد العلوي، التي كانت في مظهرها الصيغة الرمزية لمعركة النجف، أو مفتاحها الأول والأخير! فقد كشفت هذه القضية برمزيتها السياسية عن المصير التاريخي للراديكالية الجديدة كما مثلها التيار الصدري.

فمن المعلوم أن الأمم تصنع في مجرى تاريخها رموزها الخاصة، بوصفها الصيغة الأكثر كثافة لتجاربها المتنوعة في مختلف ميادين

الحياة. وعلى قدر وعمق تجاربها تتراكم وتتفعل رموزها التاريخية في سبيكة وعيها الاجتماعي. من هنا فاعلية الرمز التاريخي في الرؤية الوجدانية والسلوك العملي خصوصا في مراحل الانعطافات الحادة والدامية. فالأفراد والجماعات والأمم لا تستطيع العيش والتأمل والالتفات إلى الماضي وتأمل المستقبل دون رموز تعطي لها حق الصراخ والصمت، والحزن والفرح، والعصيان والاطمئنان، والسكينة والهيجان. إذ تعطي الرموز للمرء والجماعات والأمم حق الالتفات إلى الماضي والنظر بعيونه الباكية فرحا أو حزنا إلى ما ينبغي القيام به من اجل السير نحو مستقبل مجهول بوجدان يقترن بيقين الماضي. وقد سبق للثقافة الإسلامية يوما أن أطلقت على هذه الحالة عبارة "عالم الغيب والشهادة"، أي الاقتران المحير والمدهش للعقل والضمير في تأمل المشهود والغائب في الكون والوجود والانا. وقد وقف العراق المعاصر أمام هذه الحالة متحيرا ومذهولا، عندما تحول مرقد الإمام علي و«مفاتيح» الدخول إليه إلى إحدى قضاياه السياسية الكبرى والدامية في الوقت نفسه.

فمن الناحية التاريخية ليست هناك من شخصية كبرى في تاريخ الإسلام استطاعت أن تستثير خفايا الوعي والضمير وتضارب المشارب والتقييمات كشخصية الإمام علي بن أبي طالب. ففي مجمل كيانه الواقعي يبدو لغزاً، وفي مجمل صورته التاريخية كياناً من الصعب احتوائه. فهو من الشخصيات، التي لا يلزم بالضرورة التعامل معها بمقولات الأحكام المجردة ومنطق السياسة المعاصرة وهمّ المصالح العابرة. فالتاريخ في شخصياته النبيلة أوسع وأعمق من أن يخضع لميزان تناقضاته المباشرة. واستطاع الإمام علي أن يجسّد في ذاته أحد مبادئ الوجود الكبرى القائمة في فكرة الحق والعدل الإنساني. مما

جعل منه أحد الرموز الكبرى التي لا يعقل ولا يقبل تاريخ العراق بدونها. فهو الرمز الذي يقبع عميقا في صراخ العراقيين وصمتهم وأفراحهم وأحزانهم وعصيانهم واطمئنانهم وسكينتهم وهيجانهم. وفيه يمكن تفهم سر «الصراع» من اجل الاستحواذ على «مفاتيح» الدخول إليه، وهو الذي كانت أبوابه مشرعة للجميع!

فمن الناحية «المادية» ليست مفاتيح الصحن العلوي أكثر من مفتاح عادي لفتح أبوابه، وبمعناها «الاقتصادي» هي وسيلة الدخول على الهدايا المقدمة إليه أو سرقتها! ولعل المفارقة الروحية القائمة وراء اعتبارات «المادة» و«الاقتصاد» تقوم في تحول الإمام علي نفسه إلى ميدان للحراسة والسرقة المحتملة من جانب أولئك الذين يدعون الانتماء إليه وتمثيل ما كان يسعى إليه. وتعبر هذه الحالة عن مستوى الانحطاط الفعلي في العراق بشكل عام، وفي الحركة الشيعية العراقية بشكل خاص. كما تشير إلى مستوى تهشم القيم الأخلاقية والمعنوية للتيار الراديكالي الذي جسده «التيار الصدري». مع انه كان يحتوي في أعمق أعماقه على تمثل «للحق العلوي» الداعي للعدالة من خلال مصادرة ما تمتعت به العائلات «العلوية» الارستقراطية على امتداد قرون من الاستحواذ شبه التام على الثروات المتكدسة من عرق ودماء الجماهير الشيعية. ومن الممكن رؤية هذه الظاهرة بالعين المجردة على واقع ومثال اختلاف بيوتهم وبيوت المحلات النجفية، أو قذارة المدينة ونمطها المتهرئ على خلفية الصحن العلوي المليء بالذهب والمجوهرات، أو بين ما تمتلكه هذه العائلات «العلوية» الارستقراطية من ثروة وثراء فاحش وافتقار المدينة لأبسط مقومات الحياة المدنية المعاصرة. وليس مصادفة أن يجعل التيار الصدري من نفسه «مسئولا» عن المرقد العلوي والصحن الشريف بعد أن «صادره» بطريقة مميزة لنفسية وذهنية

الحثالة الاجتماعية. إذ وجد في «المفتاح» الأسلوب السحري للاستحواذ على القوة الروحية للمرقد. لكنها لم تكن في الواقع أكثر من «مصادرة ثورية» أو سرقة عادية. ومن ثم لم تكن حماقات التيار الصدري في السرقة سوى الوجه الآخر، أو المعارض لرزانة الارستقراطية التقليدية في السرقة.

والقضية هنا ليست فقط في أنها فسحت المجال أمام الحثالة الاجتماعية «للسيطرة» على «ثروات» هائلة، بل وفي انتهاكها لتقاليد «الأمانة» التاريخية المتعلقة بنقل المفاتيح بوصفها الصيغة الرمزية للأمانة المعنوية المتنقلة في الأجيال. لاسيما وانه الأسلوب الضروري لتراكم الثقة وتقاليدها الرمزية التي تفقد الثروة المادية بدونها قيمتها الروحية والمعنوية. إذ ليس المرقد العلوي في الواقع سوى توليف نموذجي لوحدة المادي والروحي المتراكمة في مجرى معاناة العراقيين من اجل تحقيق المبادئ المتسامية التي مثل الإمام علي في كينونته الكلية أحد نماذجها الرفيعة. الأمر الذي كان يجعل من فتح أبوابه والدخول عليه والمثول بين يديه أحد الرموز الأكثر أهمية بالنسبة للوعي العراقي في الاقتراب من المنهل المتسامي لتمثيل ما يسعون إليه. وهو فعل لا غرابة فيه بالنسبة للأفراد والجماعات والأمم جميعا.

فالجميع تبحث عن «مفتاح» لحل مشاكلها! وليس مصادفة ألا يستطيع الإنسان أن يعيش بدون «مفتاح» بوصفه الجزء العضوي لعيشه المدني. كما انه ليس غريبا أن يرتقي المفتاح إلى مستوى الماوراطبيعي، بحيث جرى ربط «مفاتيح الأمور» بيد الله، أو أن يتحول الله نفسه إلى حامل مفاتيح الغيب والمجهول. وكان يمكن ملاحظة اغلب أبعاد هذه الصيغة النفسية في الصراع الذي كان يدور في الخفاء

والعلن بين مختلف تيارات الشيعة من اجل الإقرار «بمرجعية» مقبولة وشرعية لمسك مفاتيح المرقد العلوي. وهو صراع «طبيعي» يعبر عن ظاهرة هبوط المقدس إلى مصاف الحياة الواقعية. كما انه صراع يكشف مرة أخرى عن أن المصالح الواقعية هي المصدر الحاسم في تغير مضمون المقدس، خصوصا حالما يصبح ممكنا وزن أي شيء بميزان المصالح العابرة. وقد كانت تلك الصيغة الأقرب والأكثر التحاما بجسد الراديكاليات السياسية وأرواحها. وقدم «التيار الصدري» في صراعه المرير ضد «المرجعية الشيعية» من اجل أبعادها عن «الصحن الشريف» عبر الاستيلاء على مفاتيحه نموذجا «حيا» عن النفسية الراديكالية وذهنيتها السياسية. إذ لم يكن الدفاع عن «قدسية» الصحن الشريف والمرقد العلوي و«حرمة الإسلام» و«المبادئ» سوى الأسلوب الدعائي لمصادرة الموارد التقليدية التي يجتذبها «المكان المقدس». فقد غاب «المفتاح» بعد مقتل حامله الرفيعي ليظهر مع ظهور أفواج «جيش المهدي» فيه! وهي حالة فجة للغيبة والظهور، كما بلور تاريخ التشيع صيغتها المجردة في مجرى معاناته الفكرية والروحية والوجدانية والسياسية على امتداد قرون. فعوضا عن غيبة الإمام وظهوره من اجل إحقاق العدل بعد أن ملئت الدنيا ظلما وجورا، والتي سعت المرجعية التقليدية لتمثلها وتمثيلها دينيا ودنيويا، نرى غياب المفتاح وظهوره بأيدي «جيش المهدي» الممتلئ بحثالة المدن والأرياف. وتحول الدفاع عن المقدس إلى أسلوب لسرقة قدرته على اجتذاب أضحية الناس المادية!

وترمز هذه الحالة إلى واقع الانحطاط الشامل للراديكالية السياسية الشيعية، التي لم تتعظ بعد من تجارب العراق المعاصر، بحيث نراها تعيد وتستعيد بحمية مفرطة كل أخطاء الراديكاليات السياسية.

ومن الممكن البحث عن سببها غير المباشر في طبيعة الخراب الشامل الذي أحدثته التوتاليتارية البعثية والدكتاتورية الصدامية من جهة، وفي تاريخ المرجعية «الرسمية» التقليدية من جهة أخرى. إلا أن ذلك لا يغير من واقع استخفاف «التيار الصدري» من قيمة الدولة الشرعية والنظام الديمقراطي والمجتمع المدني. فقد كان هذا الاستخفاف نتاجا لخفة «التيار الصدري» وطبيعة مكوناته الاجتماعية ومستوى التأهيل المعرفي والمهني الذي لا يصعب قياسه بأي ميزان مهما كان ضعيفا وبسيطا من مقاييس المعاصرة والحداثة. وهو السبب القائم وراء جهله الأول بقيمة العمل السياسي والديمقراطي والحقوقي. بحيث تحول منطق السلاح إلى سلاح المنطق الوحيد في التعامل مع النفس والآخرين. لكنه سلاح خشبي سرعان ما تكسر في أول مواجهة جدية. وبغض النظر عن الآلية التي جرى بمساعدتها جرّ «التيار الصدري» إلى معركة خاسرة منذ البدء، فإن طبيعة التيار نفسها كانت تجبره في الواقع على خوض غمارها باعتباره امتحانه الأول. ومن وراء هذا الامتحان كانت النخب السياسية العراقية المغامرة، التي ملئت آنذاك «مجلس الحكم الانتقالي» تهدف إلى رميه في الهاوية. وحالما وقع فيها أدرك بصورة أولية الحقيقة القائلة، بأن مفتاح الأمور الكبرى لا ينبغي سرقته من اجل الاستحواذ على «المقدس»، بل ينبغي صنع نموذجه العقلاني من اجل الدخول إلى عالم العراق المعاصر ومواجهة إشكالاته الواقعية.

غير أن «التيار الصدري» آنذاك لم يتعلم من هذا الدرس بصورة جيدة. لقد اعتقد بان الخروج الذي يمكنه أن يحفظ ماء الوجه يقوم في إرجاع المفتاح إلى «المرجعية الموقرة». بينما كان ذلك مجرد خروجا فرديا يرمز إلى حقيقة تقول، بأن المرجعية الشيعية «الرسمية» قادرة على أن تكون صمام الأمان المقبول في مواجهة الإشكاليات التي تثيرها زوبعة

الراديكالية السياسية. بمعنى تحولها إلى الكيان الذي يتحمل أخطاء الرعونة الراديكالية من خلال رمزية حمايتها للمرقد العلوي، الذي مازالت آمال العراقيين ترقد فيه بسكينة تنتظر «مهديا» جديدا بلا «جيش» من حثالة المدن والأرياف! أما الدرس السياسي الأكبر الذي كان ينبغي أن يتعلمه «التيار الصدري» والحركات الراديكالية الموجودة والقابلة للنشوء في ظروف العراق الحالية فيقوم في ضرورة إرجاع مفاتيح الأمور المادية والمعنوية إلى مرجعية الرؤية العقلانية والواقعية الهادفة إلى بناء الهوية الوطنية العراقية على أسس جديدة تتجاوز تقاليد وميراث الراديكالية السياسية. ولا يعني ذلك في ظروف العراق الحالية والمستقبلية سوى ضرورة إرجاع مفاتيح الأمور والمستقبل إلى المؤسسة الشرعية، أي إلى الدولة الشرعية والنظام الديمقراطي السياسي والمجتمع المدني.

وأخذت ملامح هذا "الرجوع" في التراكم بعد "معركة النجف" و"مفاتيح المرقد العلوي"، من خلال بروز الوعي السياسي الذاتي في التيار الصدري باعتباره "تيار الداخل" و"تيار العراق". بمعنى ظهور بوادر وعناصر الرؤية الواقعية في التعامل مع الخصوم جميعا، أي مع اغلب مكونات "العملية السياسية" و"المقاومة" والاحتلال. فقد كشفت تلك الأحداث ونتائجها عن أن التيار الصدري هو الممثل الراديكالي للوجدان العراقي المعذب. ومن ثم يحتوي في أعماقه على إمكانية الارتقاء إلى مصاف الرؤية العقلية والعقلانية العراقية العامة. وهي إمكانية قائمة في كونه تيار "العراق الداخل"، أي المكون المتراكم من واقع العراق الفعلي. كما انه التيار المتنامي من صلب الإشكاليات الواقعية العراقية، والمتحرر من تاريخ "الاتفاقيات السياسية" المبرمة بين القوى العراقية القديمة المناهضة للسلطة الصدامية. لكنها اتفاقيات كانت محكومة أما بالعجز

الذاتي أو الخضوع لإملاء القوى الخارجية ونواياها وأهدافها المختلفة. ومن ثم فإنها تبقى عاجزة عن العمل بمعايير الوطنية العراقية العامة والمستقبل المتحرر من قيود الماضي وقوة الاحتلال. غير أن إمكانية الارتقاء الواقعية للتيار الصدري كانت وما تزال ترتبط بمدى قدرته على تأسيس فكرة الوطنية العراقية، وتجسيد الصيغة الواقعية والمعقولة لفكرة المركزية الدولتية، وتحقيق مرجعية الحرية والنظام. فهي الأفكار الكبرى القادرة في ظروف العراق الحالية على وضع حد لنفسية وذهنية الانتقام الهمجي عبر إعلاء مرجعية التشيع للعراق والنظام الوطني. وفيها ومن خلالها يمكن للتيار الصدري أن يتنافس على ريادة الحركة السياسية الوطنية العراقية من بين التيارات الإسلامية بالشكل الذي يجعله القوة الأكثر فاعلية وتأثيرا وايجابية بالنسبة لترسيخ قيم الإصلاح السياسي.



الحركة الصدرية - الأنا والتاريخ أو اليوطوبيا والمستقبل

إن الفرق جلي بين "أحداث الماضي" و"أحداث التاريخ". فالأولى عابرة والثانية عبرة! والأحداث تصبح تاريخا، أي جزء جوهريا من وعي الذات القومي والثقافي حالما تصبح عبرة، أي قوة عقلية فاعلة بالنسبة لتفحص الحاضر وتأمل المستقبل. حينذاك فقط يمكنها أن تصبح جزء من مشاريع البدائل وفكرة الاحتمال العقلاني. وهي القضية الأكثر إشكالية وضرورة في نفس الوقت بالنسبة للعراق في ظروفه الحالية. إذ أننا نقف أمام حالة تشير إلى أن كل ما يجري فيه هي مجرد أحداث عابرة. بمعنى فقدانه للاعتبار من أحداث التاريخ بشكل عام وتاريخه الذاتي بشكل خاص. وبالتالي فقدانه لقوة العقل المتفحصة لما هو فيه، والمتأملة لآفاق البدائل. وليس مصادفة أن يقف العراق في بداية القرن الحادي والعشرين أمام نفس القضايا الكبرى والإشكاليات العامة التي واجهها قبل قرن من الزمن، قضايا وإشكالية الدولة والوطن والنظام السياسي والأمة و"المحتل – المحرر"! واستعادة لأحداثه العابرة من محاولة رهن مستقبله بمعاهدات سرية وعلنية

إن التاريخ لا يعلّم بالضرورة، لكنه يعاقب بالضرورة! بمعنى أن العقوبة هي القدر المحتوم للخروج عليه أو عدم الاعتبار بدروسه الكبرى. والعراق الحديث كله دروس متكررة! وهو مؤشر إضافي على فقدانه لوعي الذات التاريخي. وفي هذا يكمن احد أسباب مأساته المتكررة وعنفه المتزايد. وليس فكرة ونفسية الثأر السائدة فيه حتى الآن سوى احد مظاهرها الكبرى.

مما لاشك فيه، أن التعميم والمقارنة التاريخية لا تخلو من مجازفة بسبب التباين النوعي بين المراحل، لكنها تتمتع بقدر كبير من الإثارة للحس في دعمه للعقل النظري، وإشغال للأخير للانهماك في حدس المستقبل. مما يطرح أمامنا السؤال التالي: هل أن الثأر صفة ملازمة للشخصية العراقية بشكل عام ووعيها السياسي بشكل خاص؟ ولماذا لم يتحرر الوعي السياسي من ثقل نفسية وذهنية الثار الحزبي بمختلف أشكاله ومظاهره ومستوياته القومية والعرقية والطائفية والمذهبية والجهوية والعائلية؟ ولماذا تعجز النخب السياسية عن بلوغ فكرة الوطنية العامة، والمصلحة الاجتماعية، وفكرة المواطنة، ونظام الحرية الشامل؟ فهي أسئلة تتسم بقدر كبير من التداخل والتعقيد، لكنني سوف احصر الإجابة عليها من خلال النموذج التاريخي القديم للحركة المختارية وآفاقه على مثال الحركة الصدرية المعاصرة. والسبب هو أن الحركة الصدرية تحتوي، بمعايير الرؤية الثقافية، على المكونات الجوهرية التي لازمت الحركة المختارية القديمة بوصفها حركة العراق العامة، رغم كل المآخذ الواقعية والممكنة حولها وعنها. كما أنها الحركة التي تتمثل، بمعايير الرؤية السياسية والاجتماعية، على مفاصل التاريخ العراقي الحديث. ذلك يعني إنها تحتوي في صيرورتها على كل دراما الصعود والسقوط العراقي، وفي كينونتها على احتمال تكرار أو تجاوز المصير السياسي للحركة المختارية القديمة والحركة الشيوعية في خمسينيات القرن العشرين، بوصفهما ممثلي الصعود الوجداني والمعنوي الراديكالي العراقي.

فعندما نتأمل تاريخ العراق الحديث من وجهة نظر تراكم العقلانية السياسية فيه أو انعدامها، فإننا نقف أمام واقع يقول، بان التاريخ العراقي الحديث هو مجرد أحداث عابرة، أي زمن تتكون

سلسلته الوهمية من حلقات الثار. ويكفي المرء النظر إلى ما جرى بعد انقلاب الرابع عشر من تموز في الموقف من ممثلي النظام الملكي، وانقلاب شباط وما تبعه من مواقف تجاه التيارات الشيوعية والوطنية، وانقلاب السابع عشر من تموز عام واستمراره الدموي حتى انقلاب الثامن من نيسان عام وما تلاه من ثأر شامل تجاوز حدود المعقول، بحيث شمل الحجر والشجر والمباني وكل شيء! ووراء كل انقلاب تتعمق وتترسخ فكرة الثأر من الماضي بوصفه "كيانا بائدا". وتشير هذه الحالة إلى أن "البائد" هو الوحيد الحي القيوم في الوعي السياسي العراقي! بعبارة أخرى، إننا نقف أمام وعي سياسي كما لو أن مهمته الكبرى تقوم في إنتاج البائد ليعيد إنتاج نفسه من جديد. وذلك لان انعدام البائد يفترض بناء منظومة الثبات. ولا ثبات! إذ الثبات الفعلي منظومة. وانعدامها هو سر التحور الدائم للثأر ومحور الدوران في أفلاكه.

فقد بلورت المرحلة الجمهورية شعار وفكرة "البائد" ورفعتها إلى مصاف المرجعية السياسية الوطنية. وساهمت في وضع أسس اللاعقلانية والراديكالية المتطرفة في الموقف من الماضي. ومهدت دون وعي لتفعيل نفسية وذهنية الانتقام الكامنة في فكرة "البائد" بوصفه عقابا "إلهيا". وهي عبارة بحد ذاتها لا تعتبر بالتاريخ. لكنها حالما تصبح مكونا جوهريا وفعالا في الأيديولوجية السياسية العملية، فإنها تنتج بالضرورة أفعالا تلازمها. وهي أفعال تجسدت بصورة نموذجية في مظاهر الانتقام الهمجي من الملكية ورموزها. وقد كان التيار الشيوعي هو الحامل الكبير لهذه النفسية والذهنية، بوصفه التيار الراديكالي الأوسع والأكبر آنذاك. ولا تعقل الراديكالية بدون نفسية وذهنية الانتقام. والشيوعية في أعماقها وحقيقتها الكامنة هي أيديولوجية

الانتقام بسبب احتقارها لفكرة الاحتمال، وإيمانها بيقينها الخاص، وكثافة الوعي النفسي للعوام الملازم لوجودها العملي. وليس مصادفة أن تكون تجارب الانتقام من الماضي "البائد" هي هي ذاتها. بمعنى إفراغ الوعي القومي من مكوناته الفعلية والاستعاضة عنها بأوهام المستقبل. فقد كانت الشيوعية العراقية تعتقد أن من الممكن تجسيد هذه الأوهام بسرعة عبر رفع فكرة الثار من "النظام البائد" إلى مصاف المرجعية الوطنية الكبرى. وليس مصادفة أن تصبح كلمات "السحل" و"القتل" و"الحبال" وما شابه ذلك الأكثر ترددا وتلذذا على السنة النخبة والعوام.

ورفعت الأيديولوجية القومية البعثية (العملية) هذه النفسية والذهنية إلى مصاف المنظومة الوحيدة للدولة والسلطة. وجعلت منها الأسلوب الوحيد لوجودها، بحيث حولت الانتقام من المعارضة أيا كان شكلها ومحتواها وحجمها إلى مبدأ وغاية البرهنة الدائمة على حقها وحقيقتها! الأمر الذي جعل من "البعث" فعلا لا عقلانيا تاما يتقارب مع "إحياء الموتى". لكنه "إحياء" هو عين المحاسبة المبنية على أساس الخضوع أو الموت! إذ تتجاوز هذه المعادلة نفسية وذهنية الأديان والعقائد والعقل والإيمان إلى ما وراؤها. بحيث جرى تحويل الخنوع لها إلى معنى الوعد والوعيد والثواب والعقاب. من هنا قدرتها على توزيع الثواب والعقاب كما تريد. بعبارة أخرى، لقد أصبح الانتقام الدائم مضمون "الرسالة الأبدية" لبعث الأموات. أما النتيجة النهائية أو خاتمة الأمور فهي كتلة أوهام ودماء سرعان ما جفت وتلاشت بعد انهيار السلطة. والشيء الوحيد الباقي هو منظومة الخراب والتخلف والانحطاط.

والشيء نفسه يمكن قوله عن كمون هذه النتيجة في أيديولوجيات الحركات القومية الصغيرة (الكردية). فهي أيضا تتمثل بصورة نموذجية

أيديولوجيا الانتقام العرقي، كما نراه بصورة جلية في مختلف مظاهر الابتزاز والركض وراء الغنيمة والسرقة والاستعداد الدائم للتقلب والتبدل والسجود أمام الأقوى وضعف أو انعدام الفكرة الوطنية العامة.

في حين كشفت السنوات القليلة بعد سقوط التوتاليتارية البعثية والدكتاتورية الصدامية عن تعمق وتوسع ولحد ما ارتقاء نفسية الانتقام عند الحركات الإسلامية الشيعية والسنّية إلى مصاف المنظومة. فقد اتخذت عند معظم الحركات السياسية الشيعية طابع الانتقام المذهبي والطائفي، وعند جميع الحركات السياسية السنية طابع الانتقام الطائفي والسلطوي.

مما سبق نستطيع القول، بان اشتداد وتوسع مدى فكرة الانتقام السياسية عند اغلب القوى السياسة العراقية الحالية لم يجعل منها قوة ايجابية، كما كان الحال بالنسبة للحركة المختارية التي جعلت من فكرة الثار مصدرا للفكرة الوطنية العراقية في صراعها مع الأموية الشامية، ومنهلا لفكرة الحرية والعدالة والمساواة. ويشير هذا الواقع إلى ما يمكن دعوته بفقدان العقل الاجتماعي والثقافي والأيديولوجية الوطنية العامة عند اغلب القوى السياسة العراقية الحالية. أما الأيديولوجيات السائدة والأوسع انتشارا لحد الآن فهي أيديولوجيات الغريزة وما قبل الدولة. ومن ثم فإنها تحتوي بالضرورة على عناصر تهشمها الذاتي وانحلالها القريب وموتها المخزي، أي كل ما يعطي لنا إمكانية القول، بأنها أيديولوجيات الماضي. وتشكل هذه الظاهرة بحد ذاتها نتاج الانحطاط الشامل في بنية الدولة والسلطة والمجتمع والثقافة التي أدت إليها "المرحلة الجمهورية" وتقاليدها الراديكالية، وبالأخص في نموذجها البعثي الصدامي. وهو السبب الذي يفسر ضمور أو انعدام الفكرة

الليبرالية والدنيوية مع أنها فكرة المستقبل. غير أن ذلك لا يعني بان العراق بلا مستقبل! إنها مجرد حالة المرحلة الانتقالية التي تتراكم فيها إمكانية واحتمال بناء الدولة والمجتمع والأمة. لكن مفارقة الظاهرة وطابعها المأساوي في نفس الوقت يقوم في أن القوى الحزبية الحالية السائدة هي القوى "السياسية" المعرقلة لهذه العملية التاريخية. وهي عرقلة تتبع مكوناتها الأيديولوجية وتقاليدها الخاصة بوصفها مكونات البنية التقليدية.

فالأحزاب والأيديولوجيات السياسية في ظروف العراق الحالية هي نموذج للتقليد والتقليدية. مما جعلها تشارك في إعادة إنتاج الزمن وليس التاريخ. بمعنى أن اغلبها لم يعتبر بالماضي ولم ينهمك في إبداع التاريخ الفعلي للدولة والأمة، أي لم يستفد من إشكالية التوبة والثار والاعتبار في التاريخ العراقي القديم والمعاصر. وقد يكون مثال "اجتثاث البعث" و"محاكمة صدام" نموذجا لذلك. فقد تحولت فكرة الانتقام المتسامي إلى نفسية الانتقام الضيقة. بمعنى أنها لم تعمل على إنتاج بديل عقلاني اجتماعي وطني يذلل تقاليد وبنية الانتقام السائدة في تاريخ العراق الحديث. لقد جرى تحويلها صوب تصفية الحساب مع الأفراد وليس مع الفكرة أو المنظومة. أما النتيجة فهي إعادة إنتاج الفساد والإرهاب المعجون بنفسية وذهنية الانتقام المتنوعة، وبالأخص الطائفية والعرقية، أي اشد الأشكال لا عقلانية وتخريبا.

فالطائفية السياسية العربية تمزج المذهب بالسلطة، وهو اشد الأشكال تخلفا لمزج الدين بالسياسة. إذ لا ينتج هذا المزج على خلفية التقاليد السياسية المتخلفة للعراق الحديث غير اشد نماذج التقوقع المذهبي والانغلاق الطائفي. مع ما يترتب عليه من تنفير وإثارة لمختلف

صيغ وأشكال الانتقام. وهي الحالة الجلية في ظاهرة الإرهاب والتكفير والقتل العشوائي والقتل على الهوية الطائفية والقومية والجهوية وما شابه ذلك من مظاهر اللاعقلانية والهمجية السافرة.

بينما نرى مظاهر الانتقام القومي العرقي في ممارسات وسلوك الحركات القومية الكردية من التركمان والكلداشوريين والعرب و"قضية كركوك" ومختلف صيغ عشعشة وتفريخ قيم التجزئة والانغلاق. وفي مجموعها هي المبادئ الأيديولوجية والقواعد العملية المتحكمة في سلوك القوى القومية الكردية من اجل الحصول على اكبر قدر ممكن من "الانجازات"، أي اكبر قدر ممكن من الغنيمة، وفيها ينعكس الوجه الباطني للانتقام.

فالطائفية السياسية العربية هي طائفية الانتقام العلني، بينما الطائفية السياسية الكردية هي طائفية الانتقام الباطني. والأولى هي طائفية الماضي، بينما الثانية هي طائفية المستقبل! ويحتوي هذا الواقع في أعماقه على إمكانية الحرب القادمة، عبر تحول الصراع الطائفي المتناثر الحالي إلى صراع قومي قادم، ما لم يجر تذليل نفسية وذهنية الانتقام الكامنة عند الجميع. خصوصا إذا أخذنا بنظر الاعتبار، إن اغلب مقدمات الحروب الأهلية تتراكم في مجرى شحنة العداء اللاعقلاني والرغبة في الانتقام! كما أنها الصيغة الملازمة للحروب القومية. وكلاهما نتاج لأشد الأشكال تطرفا وغلوا لنفسية وذهنية الانتقام الهمجي.

في حين تقدم تجارب العراق القديم والحديث والمعاصر وتقاليد الانتقام فيه براهين عملية على كيفية الخروج من دوامة العنف وتذليل مقدمات ودوافع الحرب الأهلية والقومية. فقد برهنت تجارب فكرة

الانتقام التاريخي الكبير للحركة المختارية على قيمة الانتقام المتسامي، أي القادر على تحويل القصاص من مجرمي السلطة السابقة إلى أسلوب التحرر الاجتماعي، ومن تصفية الحساب مع الماضي إلى تصفية الحساب مع نماذج الخروج على مبادئ الحق والعدل، ومن الانتقام في مختلف مظاهرة إلى أسلوب تأسيس الفكرة الوطنية العراقية بمعاييرها الإنسانية والكونية. وسوف يصل العراق إلى هذه النتيجة بالضرورة من خلال السلم والحرب. إذ أن مختلف نماذج الصراع سوف تؤدي بالضرورة إلى إعادة بناء الهوية العراقية على أساس الانتماء إليه أو التشيع لكينونته التاريخية الثقافية. وهي اللمحة الوامضة في أعمق أعماق وعي الذات العراقي، التي أشعلتها الحركة المختارية قبل أكثر من ألف عام مضى. فقد جسدت الحركة المختارية من حيث مقدماتها وغاياتها ومكوناتها وشخصياتها الفاعلة نموذج التشيع للعراق العربي الثقافي الإنساني.

طبعا، إن الصدر ليس كالمختار، لكنهما من أصل واحد، وهو كوفة العراق. وليس مصادفة فيما يبدو أن يتمركز الصدر في مدينة الكوفة، كما لو انه يستنسخ صورة المعارك القديمة ووهج آثارها المغرية بالنسبة للتضحية والشهادة، كما نلمحها في وشاح الكفن على البدن. فهي الرموز التي تستثير بوعي ودون وعي قوة الطاقة المتراكمة في دهور الانتماء الخفية للعراق.

فالكوفة هي معقل المواجهة التاريخية التي صنعت فكرة وعبارة "أهل العراق". وفيها وعبرها تراكمت كل الصور المحتملة للفروسية والثأر دون أن تهبط في مجرى تاريخها إلى سوق التجارة الرخيصة للغوائل والرذائل. وليس مصادفة أن تبقي على صورتها هذه حتى في أحداث العراق الحالية.

فعندما تصدت الحركة الصدرية في رجالها المهلهلين للقوات الحكومية المدعومة بالأسلحة الثقيلة والفتاكة لقوى الاحتلال الأمريكي في النجف، فإنها كانت تستعيد في مآثرها التعيسة بطولات المختار القديمة، لكنها خلافا عنه قد أبقت على صلة الاتصال المرنة بين المقاتلين ورجال الدعوة، أي بين النجف والكوفة، أو بين "جيش المهدي" والصدر. وقد أثارت هذه الصلة في وقتها قدرا من الشماتة والاستهزاء، لكنها برهنت على ما فيها من قيمة ترتقي إلى مصاف القدر السياسي الرفيع. وهو قدر لم يحسمه تاريخ العراق بعد، لأنه جزء من غيبه المجهول، أي من مستقبل الصراع القادم، باعتباره احد أهم معالم وأنواع الصراع الاجتماعي العراقي المقبل.

فالعراق بحاجة إلى قوى اجتماعية وطنية من اجل تذليل الهوة العميقة بين النخبة السياسية والمجتمع، وبينهما وبين التاريخ الفعلي للدولة والأمة والبدائل. فالنخب السياسية العراقية الحاكمة، شأن ما جرى الإطاحة بها مازالت غريبة عن العراق ومغتربة عن تاريخه الفعلي. ويرتبط هذا الواقع بطبيعة الدمار والخراب الشامل الذي أحدثته التوتاليتارية البعثية والدكتاتورية الصدامية بإخلاء المجتمع والدولة من قواهما الحية. وحالما حدث الفراغ العاصف في السلطة بعد دخول القوات الغازية بغداد في نسيان ، فان اندفاع قوى الخارج كان اقرب إلى العاصفة منه إلى تيار الحياة المنعش. وهي العاصفة التي يمكن التأفف منها وإدانتها والحكم عليها بأشد واقسي أنواع العبارة والأوصاف، لكنها تبقى أيضا احد الأجزاء الكبرى لتأسيس التاريخ العراقي الفعلي. الأمر الذي يعطي لنا إمكانية الحكم، بما في ذلك من خلال تأمل واستقراء تجارب الأمم، بأن هجومها العنيف على السلطة والمال هو أسلوب اندثارها واحتراقها السريع. بمعنى تحولها مع مرور

الزمن إلى رماد وسماد النمو اللاحق لقوى المستقبل العراقي. ومن ثم بقاء الاحتمال الأقوى والأكبر لقوى الداخل العراقي من اجل استكمال الشوط المنقطع في تاريخه الحديث.

فكما كانت حركة عبد الله بن الزبير وأخيه مصعب هي قوة الخارج العنيفة في محاولاتها الاستحواذ على العراق في مجرى ضعف وتخلخل الدولة المركزية الأموية، فان قوى الخارج الجديدة هي الأخرى لا علاقة صميمية وجوهرية لها بالعراق، بسبب طبيعة ونوعية الانقطاع السياسي والاجتماعي عن الواقع العراقي وبفعل تأثير المفاهيم الأيديولوجية الدينية والعرقية التي كانت وما تزل تحكم سلوكها. أما قوى الداخل، شأنها شأن قوى المختار، فهي النتاج المباشر وغير المباشر للزمن التوتاليتاري والدكتاتوري الذي حكم العراق في مجرى العقود الثلاث الأخيرة. ومن ثم فهي الأكثر صميمية. وبالتالي تحتوي من حيث نفسيتها ورؤيتها وإدراكها على اقتراب يتسم بقدر كبير من الواقعية من حقيقة العراق الفعلية.

غير أن هذه المقارنة التاريخية تبقى، رغم كل الاعتراضات المحتملة عليها، الصيغة الأكثر اقترابا من الواقع. أن الحركة الصدرية الحالية كان يمكنها أن تتخذ منحى آخر في حال بقاء الصدر الأب. بمعنى إمكانية اقتران تيارها السياسي بمرجعيتها الدينية الروحية (الفكرية). وهو احتمال كان يمكنه أن يكون قوة عظمى بالنسبة للهوية الوطنية العراقية والعربية. كما كان بإمكانه أن يجعل منها تيارا اجتماعيا طبيعيا، وذلك لأنه التيار الذي كان يمكنه نقل الصراع إلى الواقع العراقي ومركزه السياسي (بغداد). ومن ثم يبقى للحوزات التقليدية تقليديتها في الانزواء الغريب في أزقة النجف المغلقة، والمفتوحة على صحون الأئمة الثرية!

غير أن الصدفة التاريخية شاءت، شأن كل ما كان مميزا للصدامية من أن تصطدم بفعل طبيعتها وتطبعها وحماقتها غير المتناهية، مع ابسط متطلبات الواقع والحقيقة والتاريخ لكي تضعهم أمام امتحان عسير من اجل البرهنة على أن الحياة هي شيء غير الموت! بمعنى وضع المجتمع وقواه أمام مهمة البرهنة على بديهيات الواقع والحقيقة والتاريخ. وقد تكون هي مفارقة العراق الحديث، بسبب عدم قدرته على تحويل الزمن إلى تاريخ والعيش بمعاييره ومقاييسه. من هنا مراوحته في الزمان والمكان. ولا يمكن نفي هذا الاحتمال انطلاقا من لاعقلانيته. فاللاعقلانية هي الفرضية الوحيدة المبرهن عليها في تاريخ العراق الحديث! من هنا سقم وعقم ما فيه لحد الآن. بحيث جرى تحول من كان في عداد العدم إلى كل شيء! لكنها الحالة التي تعكس طبيعة الانحراف التاريخي للعراق عن تاريخه الذاتي، الذي لا يمكن تأسيسه دون الانطلاق منه والرجوع إليه بما فيه. وهي العملية التي تشكل الحركة الصدرية إحدى قواها الكامنة. لكنه كمون لا ينفك في احد مقوماته الواقعية والايجابية في بقاء الصدر "يتيم" عائلته العريقة. فقد وضعه هذا "اليتم"، خلافا لتقاليد العائلات المتكلسة والارستقراطية المغلقة، أي المليئة بالزيف والرياء، أمام مهمة بناء كيانه الشخصي والاجتماعي والسياسي.

بعبارة أخرى، إن الصدر سليل العائلة، لكنها عائلة، شأن المختار، لا تتصف بطابعها المغلق ومؤسساتها التقليدية. بمعنى أنها لا تعيش وتعتاش على شرف "السادة" المزيف و"بحار العلوم" الراكدة، و"اجتهادها" المنزوي في بطون الكتب المتربة وقضاياها التي عفا عليها الزمن، وعلوها المريب على العوام، واستعدادها الدائم للاحتيال والسرقة والتشدق الدائم باسم المستضعفين. على العكس، لقد جرى رمي زمن "العائلة

المقدسة" كما فعل المختار قبل قرون عديدة، عبر إرجاع فكرة "المرجع" الروحي إلى ميدان الحياة الاجتماعية والسياسية بوصفها ميدان التأسيس العملي لتاريخ الحرية والعدالة. ولم يكن بالإمكان تجسيد هذه العملية بصورة نقية وعادلة وحرة بسبب التركة الهائلة لمنظومة الخراب والانحطاط الشامل في العراق.

فالقوى التي رفدت التيار الصدري هي تراب العراق المتطاير تحت أقدام العتاة القدماء والغزاة الجدد وسرايا القادة الصغار وأفواج المرتزقة في هيئات المعارضة المترفة للخارج. لكنه تراب العراق، ومن ثم، المكون القادر على أن يكون تربة الخشوع لما فيه، شأن تحول مراقد الأئمة المقتولين في ساحات الوغى إلى مزارات الروح والجسد العراقي عبر تحويل ترابها المعجون بعرق الأمهات إلى تربة الصلاة ونذور البهجة والأماني. بعبارة أخرى، إن الاحتمال الكامن في الحركة الصدرية للصيرورة في كيان عراقي وطني عام يرتبط بمدى قدرتها على الارتقاء إلى مصاف الفكرة الوطنية العراقية العربية. لاسيما وانه الشرط الجوهري والضروري والوحيد القادر على جعل نموها الطبيعي عملية تلقائية. بمعنى الخروج على تاريخ المرجعية التقليدية.

وقد حاولت وما تزال تحاول الحركة الصدرية القيام بها أو دفعها إلى النهاية من خلال جعل نفسها "مرجعية ناطقة" (الحوزة الناطقة). وهي صيغة تتمثل تقاليد الصامت والناطق الشيعية العامة وتتلذذ بفتات الفلسفة الإسماعيلية، لكنها لا تخضع لاعتبارات العقائد بوصفها منظومة. والسبب يكمن في أن الحركة الصدرية هي حركة اجتماعية سياسية تلقائية ثارت مع مدينة الثورة في فورتها الأخيرة بعد سقوط "هدام" (صدام). فقد انقلبت مدينة الثورة التي جرت مصادرة اسمها

باسم صدام إلى مدينة الصدر. وكان ذلك التحدي الجديد لتراث الصدامية من خلال جعل صدام "هداما" والإبقاء على مدينة الثورة، بوصفها مدينة الصدر، أي حامي تراثها وحامل لوائها الاجتماعي والروحي والسياسي. وتحتوي هذه الرؤية في أعماقها على صدى التراكم الهائل في شحنة الاحتجاج الاجتماعي للهامشية العراقية التي جسدت مدينة الثورة نموذجها الكلاسيكي.

فقد كان الانتقال فيها من الشيوعية إلى الشيعية أمرا عاديا وتلقائيا. ومن ثم كان من الطبيعي أن يرتقي مزاج الكفاح المسلح العريق بين عرب الجنوب المتراكمة في ضواحي العاصمة إلى تكوين "جيش المهدي". وهو الآخر لا عقائدية فيه شأن كل التنظيم العملي والخطاب السياسي للتيار الصدري، عندما يؤخذ على حقيقته، أي من حيث رؤية مقدماته الاجتماعية وغايته السياسية. انه مشحون بقوة الثار الاجتماعي للمستضعفين (المهمشين). بعبارة أخرى، إن "جيش المهدي" هو النسخة المنسوخة للصورة المبتغاة في خيال العوام والثوار القدماء عن مواجهة السلطة المركزية العنيفة بعنف الثورة! وليس مصادفة أن تتحول مدينة الثورة وكل الأحياء الخربة للعراق العربي إلى مصدر وممول للحركة الصدرية "بالأرواح والدماء" النقية والفاسدة على السواء. وفيها أيضا يكمن سرّ استجابتها العنيفة لمزاج الشيوعيين القدماء والشيعة الجدد. ومنهما كانت تتراكم كمية ونوعية التجربة السياسية المليئة بأخطاء الطفولة والرعونة الصادقة!



أيديولوجيا الحركة الصدرية
اللاهوت الشيعي والناسوت العراقي

لقد كانت الحركة الصدرية قبل أن تتبلور معالمها الواضحة تيارا ساريا وهائجا لبركان الصيرورة الاجتماعية السياسية. بعبارة أخرى، إن التيار الصدري هو الحركة الأولى لتبلور مختلف مظاهر ومعالم الاحتجاج الاجتماعي التلقائي في رؤية سياسية. وشأن كل بركان هائل عادة ما يختلط لهيبه بدخانه، وسيله بحرائقه. لكنها العملية الطبيعية لكي ترتسم معالم أثره في إعادة صنع تضاريس الطبيعة والحياة الاجتماعية. وهي الحالة التي ميزت الانفجار الأول للتيار الصدري، الذي أثار هلع النائمين واندهاش الناظرين وتأمل الحالمين، بسبب معايشتهم المباشرة لحرائقه الكبيرة ولهيبه المرعب. وحالما اقترب واندمج بعنفه الحار في مياه الحياة العراقية الباردة، عندها أخذت تبرز مختلف ملامحه المتناقضة. لكنها تبقى في نهاية المطاف الجزء الحيوي والطبيعي من صيرورة الوجود التاريخي للعراق المعاصر، وكينونته السياسية الحالية والمستقبلة.

لقد كانت الحياة الاجتماعية والسياسية العراقية في أواخر المرحلة التوتاليتارية البعثية والدكتاتورية الصدامية باردة حد الموت. وبالتالي، فان الصعود الراديكالي للتيار الصدري كان يعادل من حيث قيمته الاجتماعية والسياسية والفكرية والروحية فضيلة كبرى. وضمن هذا السياق يمكن اعتبار ظهور وحماسة الحركة الصدرية بحد ذاتها فضيلة روحية وسياسية كبرى للعراق. ومن الممكن العثور على رمزيتها غير الواعية في ظهور "حزب الفضيلة" من بين جوانحها. فهي العملية

التي تنشأ بالضرورة من تصدع السيل العارم لبركان الحياة الاجتماعية والسياسية. لكنه تصدي طبيعي بالنسبة لصعود وقوة الحركات الاجتماعية السياسية الكبرى في مراحل نشوئها الأول. فكل انشقاق هو جزء من "إيقاف" حركتها الهائجة أو "تبريد" عنفوانها الوجداني. ولكل منها نياتها وغاياتها وقواها وشخصياتها. وسواء كان "حزب الفضيلة" جزء من الصراع حول زعامة الحائري أو مقتدى الصدر، أو شكل من أشكال "الواقعية" و"العقلانية" في مواجهة الموجة العارمة لهيجان الحركة الصدرية في أول نشوئها، فإنها تكشف عن ديناميكية الحركة وطاقتها الداخلية. وبالتالي، فأن صعود الحركة الصدرية العنيف تعويضا عن خمول الروح الاجتماعي. وبما أن التيار الصدري آنذاك لم يكن واضح المعالم من حيث بنيته الداخلية وأفكاره العملية، من هنا سيادة الحماسة المفرطة فيه.

لكن ذلك لا يعني أن التيار الصدري قد خرج إلى الوجود من لا شيء. لقد كان نتاجا طبيعيا وتلقائيا لزمن العراق الراديكالي. وهو زمن أنتج، رغم مفارقاته وتناقضاته المخزية، الظاهرة الصدرية، التي كونت الأساس المادي والروحي للتيار الصدري الأخير. وليس مصادفة أن يعتبر التيار الصدري الأخير نفسه استمرار لما يسمى بتيار الصدر الأول والثاني، أي تيار محمد باقر الصدر ومحمد صادق الصدر. ولا تخلو هذه الإشارة من جوهرية العائلة، لكنها محكومة بفكرة ونفسية الفرد المجاهد. فالصدر الأول هو المصدر الأيديولوجي لحزب الدعوة بمختلف أصنافه. بينما لم يعد بالنسبة للتيار الصدري الأخير أكثر من فرد مجاهد في سلسلة العائلة الصدرية الروحية. وهو السبب الذي يفسر ضعف أو انعدام القيمة الفكرية والأيديولوجية لإبداعه النظري. لكنه إبداع يتراكم في حلقات العائلة الصدرية التي شكل محمد صادق الصدر

حلقتها الأخيرة. فهو اقرب من حيث المزاج والشخصية والتاريخ العملي والمصير الفردي إلى الجماهير كما هي بدون واسطة "الأحزاب".

فقد تمثل محمد صادق الصدر ثالوث التشيع الإسلامي والوطنية العراقية والانتماء العربي في كل واحد. إذ نعثر عليه في صلب المكونات المتناثرة للحركة الصدرية الأخيرة، بوصفها "منظومة" أيديولوجيتها العملية. فقد كانت شخصية أبيه تسعى لتمثيل عناصر التشيع والعراقية والعربية من خلال تمثل مصالح الفقراء والمهمشين. فقد كانت هذه الوحدة تثير بقدر واحد عداء السلطة والحوزة التقليدية. لاسيما وأن نشاطه داخل العراق كان بقواه الخاصة. من هنا سر انفجار التيار الصدري الأخير بوصفه تيار الداخل العراقي.

فقد انشأ الصدر الأب تياره الخاص، بما في ذلك في عبر مختلف أشكال المناهضة غير العنيفة للسلطة الصدامية، منظومة تأثيره في العراق بمعزل تام، بل ومعارض للأحزاب والتيارات الشيعية الأخرى (المرتبطة بأقدار ونسب مختلفة بإيران). فمما لا شك فيه أن الموقف من إيران ليس معيارا للحكم على "استقلالية" أو "خضوع" هذا التيار أو ذلك لها. لكنه يتخذ في ظروف العراق الحالية "حساسية" مفرطة، مع أن مصالح العراق الجوهرية تقوم في كيفية إيجاد وتنظيم العلاقة الإستراتيجية بإيران وتركيا بالشكل الذي يحفظ مصالحهم المشتركة. لكنها عملية سياسية محتملة وممكنة فقط حالما يتكامل العراق على مستوى الدولة والأمة. بمعنى أنها مرتبطة في ظروف العراق الحالية بمستوى التكامل الذاتي للحركات والأحزاب السياسية العراقية. وهي حالة مازالت في طور التراكم. إذ أن اغلب القوى السياسية، مازالت تعاني من "خضوع" متنوع الدرجات والمستويات، بسبب ضعفها وضعف

العراق والتدخل العنيف للقوى العالمية والإقليمية في شئونه الداخلية. ولا تشذ الحركة الصدرية عن هذا الضعف في هذه المرحلة من تطورها.

لكننا حالما نتأمل مسار الحركة الصدرية وشعاراتها ومواقفها وتقييم القوى المحلية والإقليمية لسلوكها، فإننا نستطيع تلمس تحررها الكبير واستقلالها الأكبر، مقارنة بالقوى الأخرى في ظروف العراق الحالية. فمنذ الانتفاضة الشعبانية أصبح خطابه السياسي والاجتماعي نموذجا لاستقطاب الكينونة العراقية المهمشة. وهو استقطاب كان يخمل في أعماقه وحدة النزوع الشعبي والعراقي والعربي. وتراكم عبر الأفراد والجماعات والمؤسسات الخيرية والمدارس، بوصفها الخلايا التي كانت تعيد إنتاج نفسها تحت ضغط الغطاء الثقيل للدكتاتورية. وحالما ارتفع عنها، فانه سرعان ما أخذ ينمو بقوة ملفتة للأنظار، أتخذ رغم كل تنوعه الداخلي وحدة "التيار الصدري" المحكوم بالأثر الروحي للصدر الأب.

وقد كانت مظاهره الأولى تقوم في التفاف مجموعة من رجال الدين الشباب المنتمين " للحوزة الناطقة" التي أسّسها محمد صادق الصدر[3]. فقد أخذت البنية التنظيمية تتكامل بسرعة مذهلة. مما يشير إلى أن بوادرها ومقدماتها، بما في ذلك التنظيمية، كانت واضحة وجلية في خيال ورؤية القوى الجديدة. لكنها قوى كانت تحتكم في رؤيتها ومزاجها ومساعيها من واقع العراق المهمش. الأمر الذي أسبغ عليها وعلى سلوكها ومواقفها وغاياتها أبعاد اجتماعية عراقية وطنية. فقد

3- ومن أبرزهم آنذاك قيس الخزعلي الناطق الرسمي باسم هذا الجيش، وجابر الخفاجي قاضي المحكمة الشرعية " للحوزة الناطقة"، وثلاثة آخرين تمّ اعتقالهم أو اختطافهم من قبل القوّات الأمريكية وهم : مصطفى اليعقوبي، ومحمد الطباطبائي، ورياض النوري.

كان صعود شخصية مقتدى الصدر تعبيرا نموذجيا عنها. بمعنى أنها المرة الأولى التي تأخذ الحركة الاجتماعية الشيعية زمام المبادرة خارج تقاليد "الحوزة العلمية" وأحزابها التقليدية ومرجعياتها الروحية. وهي الظاهرة التي نلمح مظاهرها الأولية في تحرر التيار الصدري من ثقل المرجعيات المحنطة بقدسية المدن الحائرة في يقينها الضيق.

فقد تحرر الصدر والتيار الصدري الجديد من مرجعية الشيخ كاظم الحائري، بوصفه المرجع الذي رشحه الصدر الأب لابنه. لكنها فرضية قابلة للجدل، لكنها لا تحتوي على أبعاد وقيم عملية ونظرية بسبب الطلاق السريع والواضح بين تيار الحركة العراقية وقادتها الجدد وبين بقايا المرجعية القابعة في مدينة قم. وهو تحول جوهري في ميدان الفكرة النظرية والعملية والسياسية، أي كل ما يمكنه أن يبلور الأبعاد الأيديولوجية الجديدة للتيار الصدري. وذلك لان غياب "المرجعية الروحية" يجعل من العقل الاجتماعي وتجاريه الخاصة والعامة أسلوبا للبحث والتدليل. أما في حالة التيار الصدري فانه دفع شخصية مقتدى الصدر بالشكل الذي جعل منها في آن واحد مرجع الحركة ولسانها الناطق، أي كل ما أعطى للحركة إمكانية التحرر من فكرة ونفسية وذهنية الوصاية[4]. ومن ثم جعلها تسرح وتمرح وتفور وتثور في كل مكان.

4- ليست محاولة الحائري إرسال شقيقه ليكون ممثلا له في العراق، وافتتاح مكتبا خاصا به، سوى إحدى المحاولات الفاشلة. وذلك لانعدام رصيدها الاجتماعي وخصوصية الأتباع والمؤيدين للحركة الصدرية. فهي الحركة التي يتبعها في الأغلب سكان المدن المهمشة وليس الأرياف المتخلفة وذهنيتها الأسطورية. لكنها اتخذت آنذاك صيغة المواجهة العملية التي تفترض من "القادة" النزول الى الشارع. وهو ما لم يقم به الحائري، بل أراد، شأن كل البنية التقليدية المشابهة، التمتع بهالة "الوصاية" دون تذوق متاعبها ومآسيها. غير أنه لم يحصل عليها لحد الآن في العراق غير علي السيستاني. وفيها تنعكس أولا وقبل كل شيء طبيعة ومستوى الخراب في البنية الاجتماعية والثقافية العراقية الحالية.

لقد دفع البركان العنيف تيار الصدر صوب مياه العراق الباردة وليس صوب أزقة الحوزة العلمية. من هنا حدة الخلاف العلني السريع والمباشر الذي اندلع منذ الأيام الأولى لصعود التيار الصدري، بين ما سيدعى بالحوزة الصامتة والحوزة الناطقة. وهو خلاف له مقدماته ونموذجه في شخصية الصدر الأب. لكنه تحول في مجرى الانعطاف التاريخي الشديد بعد سقوط السلطة الصدامية وصعود الاحتلال إلى موشور الإيديولوجية الصدرية الجديدة. ومن ثم ساهم ويساهم لحد الآن في بلورة عناصرها وعيها النظري والعملي. وليس مصادفة أن تحمل الجريدة الأسبوعية للتيار الصدري اسم "الحوزة الناطقة"، بوصفه الاسم الذي كان يتمثل تاريخ الصدر ولسان صوته المعاصر. وليس مصادفة أيضا أن يتمثل مقتدى الصدر تراث أبيه في النطق أمام جماهير المدن المهمشة، مبتعدا عن "مراكز القرار" الخاضعة للسيطرة الأمريكية وتركيبها للأشخاص والحركات[5].

بعبارة أخرى، لقد أبقى الصدر والتيار الصدري على كينونته الذاتية بوصفه حركة المجتمع المهمش والمصالح العراقية التي لم ينطق باسمها أي من التيارات والحركات والأحزاب والحوزات. وتحولت الكوفة إلى جانب مدينة الصدر المصادرة من اغتصاب الصدامية، إلى ميادين الجدل السياسي وشحذ القيم الإيديولوجية وتبلور المفاهيم العامة والخاصة بالحركة الصدرية مما يجري في العراق وحوله. من هنا تقييم

5- لقد اخذ مقتدى الصدر يتولي بنفسه خطبة الجمعة في نيسان ، ومن ثم استعادة دور أبيه الذي تولى هذه المهمة قبل ذلك بعقد من الزمن. بينما أخذت سلطات الاحتلال الأمريكي بإغلاق صحيفة (الحوزة الناطقة) في آذار لمدة يوما متهمة إياها بتشجيع العداء ضد الولايات المتحدة. وهي مؤشرات فعلية على طبيعة الحركة الصدرية وتوجهاتها المستقلة بوصفها حركة الداخل العراقي المناهضة للدكتاتورية الصدامية الاحتلال الأمريكي.

التيـار الجديـد لماهيـة "الحـوزة العلميـة" بمعـايير الرؤيـة الاجتماعيـة والسياسـية العمليـة والوطنيـة العراقيـة. لهـذا نـرى الصـدر يـتكلم عـن "مرجعيات لا تحبذ التدخل بالسياسة"، وأخرى "تتصدى للسياسة ولكن بصورة متورطة مـع قـوى الاحـتلال"[6]، وثالثـة تتصـف بمواقـف "وطنيـة مشرفة"لكنها لا تشارك بالضرورة مواقف وأعمال ورؤية التيار الصدري في كل شـيء[7]. واعتبر الأولى مرجعيـة خاملـة لا يمكـن الرضـا عنـها، والثانية لا يمكن اعتبارها "مرجعية دينية"، أما الثالثة، فإنها الأقرب إليه على الأقل من الناحية الروحية والأخلاقية ولحد ما السياسية. غير أن التيـار الصـدري، ظـل حتـى في حالـة الموقـف المتسـامح والمؤيـد والـداعم للصنف "الوطني المشرف" من المرجعيات، يتمتع باستقلالية تامة عنها.

6- لقد كان موقف الصدر من ها الصنف يتسم بسلبية كبيرة علنيـة ومستترة. وقد كان هـذا الصنف الصيغة النموذجيـة للمرجعيـات المنسلخة من تقاليد التشيع الوجـداني. بمعنـى اللصيقة بفكـرة التشـيع مـع البقـاء ضـمن تقاليـد الخضـوع للسـلطة والعـيش بمعاييرهـا. ولـيس مصـادفة أن تـبرز فيهـا ومـن خـلال دعمهـا المباشر وغير المباشـر أكثـر الأصـوات عداء وتشـويها للحركة الصـدرية. مـن هنـا تشكيك الصدر بلقب "المرجعية الدينية" لهذا الصنف من المرجعيات. غير أن وراء محاربـة هـذا الصـنف للتيـار الصـدري يكمـن تحسسـها لإمكانيـة زوال تأثيرهـا التقليدي بفعل تصاعد دور ومكانة التيـار الصـدري واحتلالـه موقـع الصدارة في الكوفة والنجف، إضافة الى بغداد، والتمهيد لمعركة النجف، التي أثارت حمية هـذا النـوع مـن "المرجعيـات". وقـد تكـون خطبـة الشـيخ القبّنجـي في النجـف وتهديداته بمسيرة ربـع المليون (التي أمـر السيستاني بإلغائهـا)، واستغلال مـزاج التجـار المتضـرّرين مـن توقّـف السـياحة الدينيـة، الـذين دعـوا إلى طـرد "جـيش المهدي" من المدينتين، مع التشديد على وجود "عناصر كثيرة غرباء عنهما"، أحد النماذج الجلية بهذا الصدد. وقد وصـف مقتدى الصدر موقف هـؤلاء قـائلا "لا يمكن إنكار أن البعض ممن يجعل من تنامي دخله أعلـى وأكبر بكثير مـن كرامتـه وحريته، وينظر لنفسه من دون أن ينظر الى مستقبل الأطفال، يستاء مـن كل مـا ينغص فراشه الوثير، وعيشه المنعم وإن كان خسيسا تحت نـير المحتـل ... وهـؤلاء لا يمثلون ضمير أي شعب حر".

7- المقصود هنا مرجعية علي السيستاني.

ولـيس الرجـوع إلى تقاليـد الصـدر الأول والثـاني بوصـفهما سلسـلة "الشهادة" سوى الصيغة الأكثر بروزا بهذا الصدد .

إن الرجوع إلى حلقات الشهادة الصدرية، يعني استقلالية التاريخ والموقف من اجل صنع حلقاتها اللاحقة، أي سلسلة الحركة القابلة للنمو خارج تقاليد وتأثير المرجعيات التقليدية للنجف وقم. وتحتوي هذه العملية في أعماقها أولا وقبل كل شيء على وحدة الأبعاد الاجتماعية والعراقية. ولا يغير من ذلك شيئا كون هذا الرجوع بلا منظومة ولا عقائد سياسية باستثناء الحد الضروري لتقاليد التشيع المجاهد والنزوع العربي العراقي، أي تقاليد التضحية والانتقام المتسامي المتراكمة في تاريخ العراق العربي.

فقد شقت هذه التقاليد لنفسها الطريق إلى "الأيديولوجية العملية" للحركة الصدرية، التي يمكن رؤية ملامحها النموذجية، على سبيل المثال في "الأجوبة" التي كتبها مقتدى الصدر ردا على أسئلة التيار نفسه بصدد الموقف من البعث. ففي معرض إجابته على مواقفه من فكرة البعث وإيديولوجيته السياسية، يشدد الصدر على كونها فكرة آنية صنعها "الغرب الكافر والثالوث المشئوم" (إسرائيل وأمريكا وبريطانيا) لجعلها يدا ضارِية ضد الإسلام عموما وأتباع أهل البيت خصوصا، وإنها تأسيس للقومية الضيقة المعارضة لفكرة الإسلام، وإنها جذرت العلمانية وأرست أسس الدكتاتورية والظلم، وجعلت من قادتها آلهة فارتكبوا المحرمات بلا وازِع ولا رادع.

كما نراه يجد فيمن اعتقد بفكرة البعث وامن بها محلا للعقاب! بحيث نراه يقول "لو كنت مجتهِدا لأقمت عليه القصاص"! كما وجد فيمن يروج لها استمرارا لمن "يدعم معاوية ويزيد والحجاج وهولاكو وكل

ظالم عبرَ مر العصور. فهو مروج للباطل ويستحق العقاب". لهذا نراه يطالب بالقضاء النهائي عليه مهما كان اسمع ولونه الجديد. إذ وجد في حزب البعث مصدر الخراب المادي والروحي للعراق. وان كل ما قام به وأدى إليه هو ظلم وجور ورذيلة. من هنا ضرورة القصاص العادل منه. بل وجد في "كل كتبهم وإصداراتهم ومنشوراتهم كتب ضلال يحرم تداولها على الإطلاق". من هنا دعوته "لاجتثاث أفكارهم وقلع أشخاصهم وعدم الانجرار خلف السياسة التي تجعل منهم حزباً حكومياً مِن جديد". وطالب بمقاطعتهم عل كافة المستويات ومطاردتهم أينما كانوا وحلوا كما كان يفعلون ضد الناس. بل نراه يرد على سؤال متعلق بموقفه من "التشهير بهم وتعريف الناس على قبائحهم وأفكارهم الخبيثة" بعبارة "نعم! جزاك الله خيراً ففيه مرضاة لله تعالى"! كما نراه يطالب بنبذ ثقافة البعث وإزالة مناهجهم من التعليم. وحول الثأر الشخصي من حزب البعث بسبب قتله الصدريين (محمد باقر ومحمد صادق) نراه يقول "كوني وليا للدم أطلب إقامة القصاص على كبير القَتَلَة من العفالقة الأنجاس الهدّام (صدام) عليه اللعنة والعذاب وعلى كل القتلة المُجرمين ممن كانوا يأتمرون بأوامره الشيطانية الخبيثة. فما ضاع حق وله مُطالب. فلَم تذهب دماء الحسين دون عقاب. فقد كان المختار نِعمَ الآخِذ بثأرهم. اللهم، فإن كنت مستحقا لأن أكون آخذاً بالثأر، ثأر آل الصدر، بل الإسلام كافة، فلك الحمد على ذلك، وإلا فاجعل قتلَهم وتشريدهم على يد مولانا الإمام المهدي، أو أيدي المؤمنين".

إن هذه الإجابات النموذجية تعكس طبيعة التفكير والذهنية الصدرية، بمعنى اتصافها بالمباشرة وتوليفها المعقول لما اسميه باللاهوت الشيعي والناسوت العراقي. وهو توليف يتمحور ويتجسد من خلال الأبعاد الأربعة الكبرى للفكرة الصدرية الحالية، ألا وهي "مواجهة

المحتل" و"عراق الداخل" و"التضحية الاجتماعية" و"الانتقام التاريخي". وإذا كان البعد الأخير (الثأر والانتقام) هو الأكثر والأوسع انتشارا وترسخا في إجاباته فلأنه يتعامل مع الإشكالية الأشد إثارة بالنسبة للأبعاد الأخرى. من هنا تركز فكرة الثار فيها بوصفها جزء من معترك البدائل. الأمر الذي يعطي لنا إمكانية القول، بان غياب المنظومة الفكرية والأيديولوجية الواضحة لا يعني انعدامها. على العكس إننا نستطيع لمح ما يمكن دعوته بالمنظومة الخفية لتعايش عناصر التشيع والنزعة العراقية والروح العربي من خلال الأبعاد الأربعة التي جرت الإشارة إليها أعلاه[8].

كل ذلك يعطي لنا إمكانية القول، بان التشيع والعراقية والعربية هو ملك وملكوت وجبروت التيار الصدري، أي ثالوث التشيع المذهبي وليس الطائفي، والوطنية العراقية العامة وليس الجهوية، والنزوع العربي الجامع لكليهما. لكنه ثالوث لم يتكامل بعد في منظومة فكرية واضحة المبادئ وأيديولوجية سياسية لها أطرها الدقيقة وتنظيمها العملي. الأمر الذي يجعلها جزء من آفاق التيار وحركته المنظمة. وهي آفاق تتفاعل فيها أربعة أبعاد جوهرية وهي أبعاد الداخل، والمواجهة للمحتل، والتضحية الوجدانية والاجتماعية، والانتقام التاريخي. كما أنها الأبعاد التي تتفاعل فيما بينها في مجرى الصراع العشوائي والعنيف السائد في ظروف العراق الحالية. من هنا غلبة الطابع التجريبي فيها. لكننا نلمح في الوقت نفسه تهذبها تحت ضغط تفاعلات القوى المحلية

8- طبعا، أن انتشار وغلبة فكرة ومزاج "الانتقام والثأر" هنا لم يكن معزولا عن طبيعة الأسئلة وموضوعها الخاص. فقد كانت الأسئلة بمناسبة ذكرى استشهاد محمد باقر الصدر. وكان الحوار يدور حول «البعث الكافر». ذلك يعني أن مهمة الحوار كانت تقوم في كشف حدود وأبعاد الثأر من حزب البعث بوصفه شكلا من أشكال تصفية الحساب مع الإرث الصدامي.

والإقليمية والدولية. حيث يجري تهذيبها من خلال توسع وتعمق العناصر الواقعية والعقلانية في التعامل مع القوى والأحداث. وهي عملية تحد من فاعلية المزاج والأهواء الراديكالية في التيار الصدري، وذلك بسبب التكامل النسبي الأولي والعملي لثالوث التشيع العراقي العربي بأبعاده الأربع المشار إليها أعلاه. من هنا تباين نسب هذا البعد أو ذاك في المواقف العملية للتيار الصدري، لكنها تعمل في ظروف العراق الحالية من خلال التعامل مع الإشكاليات الأكثر واقعية وإلحاحا وضغطا على التيار نفسه.

وليس مصادفة أن نرى بروز هذه الأبعاد بصورة متباينة من حدث لآخر، لكنها تعكس في ديناميكيتها حركة التيار الصدري وتحرره من العقائد المذهبية. ففي الأسابيع الأولى التي أعقبت الغزو الأمريكي للعراق انتشر أنصار الصدر في شوارع الأحياء الشيعية الفقيرة من العاصمة بغداد وقاموا بتوزيع الغذاء. كما تم إلغاء اسم "مدينة صدام" واستبدالها ليس عبر الرجوع إلى اسمها الأول (مدينة الثورة) بل تقديمها باسمها الاجتماعي الجديد: "مدينة الصدر".

وحالما جرى تأسيس "مجلس الحكم المؤقت" نرى التيار الصدري ينشأ حكومة منافسة. كما نراه يرفض دعوة الحكومة للمشاركة في مؤتمر وطني. ثم يهاجم إياد علاوي، بوصفه رئيس وزراء الحكومة المؤقتة، ويعتبره استمرار للاحتلال الأمريكي للعراق. ثم اشتبك أنصار الصدر مع أتباع آية الله السيستاني في مجرى التحضير لتسليم السلطة (الشكلي) للحكومة العراقية. واعتبر الائتلاف العراقي الموحد لا يمثلون سوى أنفسهم. كما صرح بعدم شرعية الانتخابات العراقية مادام الاحتلال موجوداً. دون أن يفرض على المجتمع ذلك أو أن يجرد حتى

أنصاره من حق المشاركة في الانتخابات. كما نراه يهدد الحاكم الأمريكي للعراق آنذاك بول بريمر بالثورة في حال عدم جعل الإسلام مصدرا رئيسيا للتشريع في العراق.

وفي الوقت الذي يحارب بقوة الاتجاهات التكفيرية والطائفية السياسية السنّية ويدعو رجال الدين الشيعة للمشاركة الفعالة في الحياة السياسية، نراه ينظم مظاهرات تضم شيعة وسنّة في بغداد ومدن أخرى في مجرى معارك الفلوجة والنجف وغيرها. وفي الوقت الذي وجهت إليه اتهامات "فرق الموت" في مواجهة "النواصب"، فان خطابه السياسي ظل مشحونا بنبذ الطائفية، والدعوة للوحدة الوطنية. ودعم أقواله بالأعمال كما كان ذلك جليا في موقفه مع أهل مدينة الفلوجة في مجرى المعارك العنيفة آنذاك. كما أرسل بعض قواته لدعم التركمان والعرب في كركوك ضد التجاوزات والجرائم العرقية للأحزاب الكردية. بل نراه يتعدى حدود العراق ليعلن نفسه اليد الضاربة لحزب الله اللبناني وحركة حماس الفلسطينية. وقد كانت اغلب مواقفه محكومة بهاجس التحرر الوطني العراقي من الاحتلال. فقد شدد دائما على عدم قبول "العيش بين حفر الاحتلال"، وان "الواجب الديني والوطني" يلزمه بالسعي من اجل الحصول على المطالب حسب المستطاع، لكنه "لن يرضى بالاحتلال"، وأن من يقر بالاحتلال ليس بعراقي"، وان "الحركة لا تسمع قولا لغير العراقيين". وانه يرغب بأن "تكون العملية السياسية أو الوطنية ضمن الحوزة العلمية والمرجعية"، كما أن من الممكن "التعاون مع الأمريكان بالجهد الذي نقدر عليه، لكنهم محتلون ويجب أن يرحلوا". ووضع هذه الفكرة في قوله: "إننا مع أي نوع من أنواع المفاوضات مادامت جدية ولا تتضمن ما يخالف ثوابتنا من وجوب رحيل المحتل وفق سقف زمني مدعم بضمانات دولية". وظل

متمسكا بهذه الفكرة حتى في مجرى ونتائج تعرضه للضربة العنيفة بأثر "معركة النجف".

لقد اخذ التيار الصدري يتمرن ويتمرس في دهاليز اللعبة السياسية، لكنه ظل أكثر وضوحا وأمانة في التعبير عن مبادئه الكبرى ألا وهي: معارضة الاحتلال، والوحدة الوطنية، والمعارضة السياسية للسلطة بوصفها استمرار أو أداة بيد الاحتلال. لكنها ممارسة كانت تتشبع بمعايير الرؤية الواقعية، التي وضعها الصدر في إحدى كلماته التي تقول "نحن نعمل بعدة تكتيكات تبعا لظروف المرحلة الراهنة. ومن الممكن أن تستمر مرحلة من المراحل فترة زمنية قصيرة، وقد تمتد فيشتبه الأمر على البعض فيظنها طرحا نهائيا غير قابل للتبدل. نعمل بعون الله وفق ظروف مختلفة تتطلب تغيير بعض توجيهاتنا من دون الخروج على أهدافنا الرئيسية". ومن الممكن رؤية مختلف المظاهر العملية والسياسية لهذه الفكرة في مجرى مجرى تطور الحركة الصدرية وبالأخص في السنوات الأربع التالية للاحتلال. ذلك يعني، أننا نقف أمام ديناميكية محدودة بشروط الحياة العراقية الحالية الخربة، وفساد اغلب قواها السياسية، وضعف البدائل العقلانية والوطنية العامة، لكنها الأكثر فاعلية ومن ثم الأكثر إشكالية بالنسبة للبدائل.



الحركة الصدرية والمستقبل
من الطائفة إلى الأمة
ومن المدينة إلى الدولة؟

إن مأساة وآفاق الحركة الصدرية هما بقدر واحد مأساة وآفاق العراق. بمعنى إنهما كلاهما نتاج ظروف الانحطاط، تماما بالقدر الذي يمثلان محاولة الخروج من مأزقه التاريخي الفعلي. من هنا إشكالية البديل الكبرى في العراق أمام جميع القوى السياسية بما في ذلك أمام الحركة الصدرية. بل أنها الإشكالية الأعقد بالنسبة للحركة الصدرية بسبب كونها الحركة الاجتماعية السياسية الوحيدة التي نشأت من صلب الواقع العراقي وزمن الانحطاط الشامل فيه. وهو السبب الذي جعل منها حركة تحمل كل متناقضات الوجود التاريخي للعراق المعاصر.

من هنا لا يمكن لأية إسقاطات تاريخية أو تملق أيديولوجي أو مواعظ أخلاقية مجردة مهما كان مصدرها، أن تغير شيئا من مجرى الأحداث ما لم تتكامل الحركة العشوائية الناشئة من خليط الانحطاط والوجدان في حزب سياسي اجتماعي متميز. وبالتالي، فهو تكامل مرهون لحد كبير بمدى قدرة الحركة (الصدرية) على الارتقاء صوب الواقعية العقلانية، بوصفه الشرط الضروري لنمو وتراكم منظومة القيم الاجتماعية والمدنية في الفكرة السياسية. بمعنى تحول التيار الصدري والحركة الصدرية إلى كينونة سياسية اجتماعية لها أيديولوجيتها العملية وبرامجها الواضحة.

ومن الممكن توقع تعقيد الارتقاء بسبب طبيعة وحجم التركة الهائلة للتوتاليتارية البعثية والدكتاتورية الصدامية ورصيد الإرث التقليدي في الوعي المذهبي السياسي. من هنا عادة ما تتخذ عملية التهذيب والتشذيب والخروج على المألوف ومحاربة التقليد، بما في ذلك تجاه أكثر الأمور بساطة، طابع الصراع الوجداني العنيف. بعبارة أخرى، إن أي اهتداء سياسي جديد تمليه ظروف الحياة والصراع يصبح بالنسبة للعقل والضمير شكلا من أشكال "الهداية". ومن الممكن رؤية الأشكال المتغيرة لهذه الظاهرة وأنواعها العديدة في حال تأمل تجربة الصراع السياسي التي خاضها التيار الصدري في السنوات الماضية. حيث تصب هذه المظاهر عموما فيما يمكن دعوته بالرجوع إلى المجتمع وحركته الداخلية. فقد كان ذلك الأسلوب الأولي والضروري بالنسبة لتيار اجتماعي سياسي تلقائي (كالتيار الصدري) للخروج التدريجي من تقليد المرجعيات التقليدية[9].

انه سوف يتوصل بالضرورة إلى أن مرجعية التقليد هي مرجعية تقليدية، أي مؤسسة خارج التاريخ الفعلي بشكل عام والعراقي بشكل خاص. ويمكن رؤية الأبعاد النظرية والعملية لهذه النتيجة في تاريخ "التيار" الصدري، أي تيار المدرسة الصدرية، الذي وضع محمد باقر الصدر أسسه ومقدماته الأولية عبر إشراك تراث التشيع الإسلامي في جدل المعاصرة. لكنه جدل أيديولوجي في اغلبه وعادي بمقاييس العلم النظري. ومع ذلك فقد كان الأكثر جدارة وقيمة وأهمية بالنسبة لبلورة

9- إن إشكالية المرجعية في ظروف العراق الحالية والمستقبلية هي إحدى إشكاليات تطوره اللاحق. فهي القضية التي تتمحور حولها إشكالية الدولة والأمة والثقافة السياسية والفكر. وسوف أتناول هذه القضايا والإشكاليات في احد كتبي اللاحقة بهذا الصدد.

الوعي السياسي العراقي والعربي والإسلامي المستقل وسط الكثافة الثقيلة لجمود "الحوزة العلمية".

غير أن التيار الصدري الحديث لم يولد من أحشاء الفكرة الإيديولوجية لمحمد باقر الصدر، بمعنى أن الحبل السري لغذائه الفكري والأيديولوجي لم يحتو على مكونات "فلسفتنا" و"اقتصادنا" و"سياستنا"، بقدر ما انه كان يمتص رحيق وجوده الأول من تربة القوى الاجتماعية المهمشة وهواء الراديكالية العائم في عقلها ووجدانها. فالتيار الصدري لم يكن مقيدا بأيديولوجية التشيع السياسي السابق (حزب الدعوة) ولا بتقاليد العائلة (آل الحكيم). لاسيما وأنها تقاليد لم ترتق إلى مصاف الفكرة السياسية المتحررة من ثقل التقليد الميت لتراث الأقدمين ومرجعياتهم "الحية" في "آيات" يصعب قراءتها بلغة المعاصرة. فقد كشفت أحداث التاريخ السياسي بعد سقوط الدكتاتورية عن أن حزب آل الحكيم والدعوة لحد ما، كان الأقل ارتباطا بالمستقبل. وأن مفهومهما عن المستقبل هو الإبقاء على "نقاء" الماضي، أي فكرة السيد والعبد بعد رفعها إلى مصاف المقدس. وهو أمر يضعها بالضرورة بالضد من فكرة الحرية والتقدم والعلم. دعك عما فيها من تعارض مع فكرة الوطنية والمواطنة والصعود العربي للعراق. وهو سر صعود مرجعية الثورة (اقصد مدينة الثورة) بوصفه الخط الموازي في بدائله لتقاليد التشيع السياسي. فتقاليد ونفسية وذهنية ومزاج الحركة الصدرية هي تقاليد مدينة الثورة العراقية ومكوناتها الاجتماعية، بوصفها منطقة البؤس والحماسة الإنسانية الرفيعة، ومصدر من مصادر القوة الهائلة للروح البغدادي والعراقي والعربي.

وبما أن التيار الصدري هو الممثل الراديكالي للوجدان العراقي المعذب، من هنا احتواءه على إمكانية الارتقاء إلى مصاف الرؤية العقلية

والعقلانية العراقية العامة. فالتيار الصدري هو تيار "العراق الداخل"، أي المكون المتراكم من واقع العراق الفعلي. كما انه التيار المتنامي من صلب الإشكاليات الواقعية العراقية، والمتحرر من تاريخ "الاتفاقيات السياسية" المبرمة بين القوى العراقية القديمة المناهضة للسلطة الصدامية. وهي اتفاقيات كانت محكومة أما بالعجز الذاتي أو الخضوع لإملاء القوى الخارجية ونواياها وأهدافها المختلفة. ومن ثم فإنها تبقى عاجزة عن العمل بمعايير الوطنية العراقية العامة والمستقبل المتحرر من قيود الماضي وقوة الاحتلال.

إن الإمكانية الكامنة في التيار الصدري تجعله قادرا، مقارنة بغيره من التيارات الإسلامية، على تبوء مكانة القوة الأكثر فاعلية وتأثيرا وايجابية بالنسبة لترسيخ قيم الإصلاح السياسي، وبالتالي وضع حد لنفسية وذهنية الانتقام الهمجي. لكنها إمكانية محكومة بمدى استعداده لإعلاء مرجعية التشيع للعراق والنظام الوطني والدولة الشرعية. والسبب يكمن في أن الارتقاء الفعلي للحركة السياسية وقدرتها على تمثل المصالح الجوهرية للمجتمع المجزأ يرتبط باستعدادها على توحيد التقاليد والارتقاء المحكوم بقيم المعاصرة.

فالحداثة الفعلية هي تلقائية التطور المعقولة بوعي الذات التاريخي والثقافي. وفيها يكمن مصدر التقدم الاجتماعي وتراكم المؤسسات والاحتراف والقيم والأفكار والمبادئ والمنظومات. وهي إمكانية يمكن رؤية مثيلها في ارتقاء الحركة السياسية الشيعية في لبنان إلى مصاف (حزب الله)، الذي يمكن تصنيف تجربته على أنها الأكثر نموذجية في العالم العربي الحديث (بالنسبة للحركات الإسلامية السياسية). والإجابة على السؤال الذي يمكن توقعه عما إذا كان بإمكان

التيار الصدري الارتقاء إلى مصاف التيار السياسي الفكري المستقل عن ثقل العادة والتقاليد، يقوم أولا وقبل كل شيء في كيفية تأسيسه للفكرة الوطنية العراقية، وتجسيد الصيغة الواقعية والمعقولة لفكرة المركزية الدولتية، وتحقيق مرجعية الحرية والنظام.

وعندما نتأمل تاريخ التيار الصدري الفتي، فإننا نلحظ في مجرى تصلب عوده على جملة مفاصل عامة وكبرى تؤيد الفرضية المطروحة أعلاه، ألا وهي، ارتقاءه من حركة راديكالية مغلقة نسبيا إلى حركة سياسية للشيعة عموما، ومنها إلى حركة اجتماعية سياسية شيعية، وأخيرا ارتقاءها إلى مصاف الحركة العراقية العامة (في ظل بقاء عناصر ومكونات الجهوية والمذهبية بوصفها مكونات ثانوية). ويشير هذا الارتقاء بدوره إلى احتواء التيار على إمكانيات الإصلاح المنظومي الذاتي، ومن ثم إمكانية ترسيخ أسس منظومة الارتقاء التلقائي. ويمكن رؤية بعض عناصر هذه العملية في سلسلة تطور التيار الصدري من الغوغاء إلى الأصحاء، ومن اللاعقلانية إلى الواقعية، ومن العوام المتحمسة إلى العوام المتحسسة، ومن التهور إلى الانضباط، ومن الوحدة إلى التجزئة، ومن خلالها إلى التنظيم المعقول. ذلك يعني إننا نقف أمام سلسلة تتألف من ست حلقات مترابطة يمكن رؤية معالمها الخاصة والواضحة في مجرى سنوات من التجربة السياسية المستقلة. إذ تبرز قيم وأهمية هذه التجربة وديمومتها في ظهور ملامح النخبة السياسية المحترفة.

إن ظهور النخبة السياسية المستقلة والخاصة بالحركة الصدرية هو أيضا احد أشكال ومستويات "امتحانها التاريخي". إذ لا تخلو أية حركة من "امتحان" النخبة على محك السلطة والجاه والمال. وفي مجرى

الصراع اللاعقلاني والدموي والوسخ في الكثير من جوانبه، لا يمكن للحركة الصدرية أن تتجنب إمكانية ابتزازها، خصوصا إذا أخذنا بنظر الاعتبار مقدماتها التاريخية وقاعدتها الاجتماعية. فسوف تتحول النخبة إلى مصدر قلق للقوى السياسية المناهضة. من هنا تحولها الآن وقريبا إلى ميدان الابتزاز من خلال مختلف الصفقات التي تسعى لتجزئة وتكسير وتهشيم وحرف وكسب عناصرها من اجل إضعاف الحركة وخلخلت روحها الأخلاقي. إذ تعكس هذه الحالة نوعية الصراع السياسي المتخلف في ظروف العراق الحالية؟ فالعراق هو بلد الحثالة الاجتماعية ومستنقع الانحطاط الأخلاقي. فقد كانت الأخلاق العاصم السياسي لأغلب الأحزاب والحركات الاجتماعية قبل ، لكنها تعرضت إلى تدمير. ولم يعد، بعد حروب الصدامية وشناعة الدكتاتورية والحصار أي قدر أخلاقي يمكنه أن يكون عنصرا من منظومة القيم السياسية. من هنا خطورة السقوط الكامنة في نفوس وأفئدة القوى والنخب السياسية. غير أن قيمة النخبة وحقيقتها تبرز أيضا زمن النكبات والهزائم.

إلا أن الآفاق الفعلية الكبرى بالنسبة للمصير العراقي في الحركة الصدرية ترتبط بمدى قدرتها وقدرة نخبتها السياسية على توحيد وإنتاج سبيكة جديدة مرنة وواقعية تحتكم إلى العقلانية والرؤية الوطنية العامة من اجل تحييد عناصر التجزئة في التيار الشيعي العام، أي الاستحواذ العقلاني على الساحة الشيعية ومن خلالها تقديم برنامج البديل الوطني العراقي العربي. ويشترط هذا التحييد تذليل الانحراف الداخلي وتقاليد العائلة والجهوية الميزة للحوزات الدينية وأطرافها السياسية. وفي حال انجاز هذه المهمة يمكن للتيار الصدري أن يسهم في تحييد القوى المحلية والقومية الصغيرة والعرقية، ولاحقا القوى

الخارجية المتصارعة على مصالحها الضيقة في العراق (إيران وبعض سلطات الدول العربية).

إن هذه السلسلة العملية الصعبة مرتبطة بدورها، بل محددة بكيفية تذليل الخطر الداخلي الأكبر بالنسبة لوحدة العراق وتكامله الذاتي. وهو خطر يكمن الآن في تفاعل القوى العرقية (الكردية) والطائفية السياسية العربية. لكنه خطر يضمحل ويتضاءل بصورة سريعة وعاصفة في حال إخراج قوى الاحتلال. الأمر الذي يجعل منها مهمة أولية. فهو الشرط الضروري لتكامل الدولة والمجتمع والهوية الوطنية، كما انه مقدمة تحييد وتذليل تأثير قوى الاحتلال ودورها الممكن والمحتمل في الحياة الداخلية للدولة العراقية.[10]

فقد أصبحت الدولة العراقية بعد الاحتلال الأمريكي عارية تماما أمام التدخل الأجنبي. ومن ثم فان القوة القادرة على استعادة "العتمة" هي القوة التي تتمتع بتاريخ العداء للقوة الأمريكية، وليس القوى التي تعلقت بأذناب الاحتلال وسارت بركابه. فقد خلطت هذه القوى بين إمكانية إقامة علاقة طبيعية وضرورية بين العراق والولايات المتحدة كدول وأمم، وبينها وبين قوى الجيش والاستخبارات!

لكن المهمة التي تقف أمام التيار الصدري لا تقوم في محاربة هذه الاتجاهات، بل بتقديم البدائل الايجابية عبر الاستحواذ على الساحة

10- إن الانتهاك التاريخي للدولة الذي قامت به الولايات المتحدة أقسى وأتعس من الدور الذي قامت به الفاشية الألمانية في الدول التي احتلتها. أنها استباحت كل شيء، وبالأخص بنية الدولة وسرقة كل مقوماتها وحقوقها وأسرارها. الأمر الذي جعل منها دولة عارية! مما يفترض بدوره، على المدى القريب والبعيد، إعادة الاعتبار المعنوي لهذه المهانة والتعويض المادي لكل خسارة وتدمير وسرقة وتخريب تعرض لها العراق وكل ما فيه، استنادا إلى القانون العراقي والدولي.

الشعبية بمعايير الرؤية الوطنية العراقية العربية، والدفاع عن فكرة الحرية والنظام الديمقراطي. فهو الأسلوب الذي يذلل النقص الفعلي في التيار الصدري ويسحب البساط في الوقت نفسه من جانب التيارات التي تجعل من قيم العلمانية والديمقراطية أداة الابتزاز وليس لبناء الدولة والمجتمع والثقافة. وليس مصادفة أن نرى اشتراك اغلب القوى المختلفة والمتحاربة والمتناحرة فيما بينها، بالعداء للحركة الصدرية. بحيث تحولت الحركة الصدرية إلى هدف كل من يشترك مع الولايات المتحدة الأمريكية بمعايير الاحتلال! من هنا اشتراك مختلف القوى في محاربتها تحت حجج لا قيمة لها ولا شرعية مثل "العلمانية" و"الديمقراطية" و"الشرعية". وهي كلمات فضفاضة ولا محل لها في إعراب القوى التي تدعيها. بل من الممكن القول، بأن الحركة الصدرية لا تقلّ "علمانية" وديمقراطية وشرعية في ظروف العراق الحالية عن أية حركة أخرى تدعي هذه المبادئ والقيم. لاسيما وانها استمدت وعيها لهذه القيم والمبادئ من مقومات العراقية الفعلية والتصاقها بالمجتمع وتمثيل قواه المسحوقة والصاعدة. فالعراق ليس بحاجة إلى علمانية لصوص وديمقراطية عبيد بأيدي الاحتلال، كما انه ليس بحاجة إلى شرعية كاذبة، دستورها مثل قرآن الحركات التكفيرية والإرهابية، يمكن توظيف آياته ومواده حسب الحاجة والطلب.

إن تحقيق هذه المهمات العملية الكبرى مرتبط بتطوير الأسس الأولية والشروط الذاتية للحركة الصدرية. بمعنى الانطلاق مما فيها ودفعه إلى الأمام بمعايير الوحدة المتلازمة لما أسميته بثالوث التشيع والعراقية والعربية، أي توليف فكرة التشيع العراقي العربي، بوصفه تشيعا للعراق العربي (بوصفه هوية ثقافية وليست دينية أو مذهبية أو عرقية أو جهوية). ويمكن تحقيق ذلك من خلال:

- توحيد الطائفة بلا طائفية، ودمجها بإشكاليات العراق العامة والعربية الثقافية. بمعنى التنبه الدائم لكي لا تسقط الحركة في أوحال المواجهات الطائفية ومشاريعها الجزئية والضيقة.

- أولوية وجوهرية الصراع مع النفس، عبر صنع البديل الذاتي في الفكرة والممارسة والقيم والمبادئ والأهداف.

- الارتقاء بالتيار إلى مصاف الحزب السياسي. مع ما يترتب عليه من إرساء أسس جديدة لبنيته الفكرية والأيديولوجية والتنظيمية وشعاره الأساسي وبرامجه واسمه.

وهي مهمات يمكن وضع لبناتها الأولى أو تجريبها العملي من خلال إدراجها ودمجها في التحضير لكل انتخابات قادمة. بمعنى العمل من اجل بلورة برنامج واضح المعالم يتمثل تقاليد الحركة الصدرية ويرفعها إلى مصاف المنظومة السياسية. والصيغة المثلى هنا أن تلتف برامجها المستقبلية حول

1. شعارات الدولة الشرعية، والقانون، والديمقراطية وتداول السلطة، والحرية.

2. أما شعاراتها العملية فتلتف حول قضايا القضاء على البطالة، وتطوير الزراعة، والاهتمام بالصحة، ومهمات الدفاع عن حقوق المرأة والأطفال.

إذ بإمكان هذه الشعارات العمل على استقطاب الهموم الاجتماعية والسياسية، لاسيما وأنها القضايا الأكثر جوهرية للعراق في مجرى العقود التالية. وبالتالي ينبغي أن تكون جزء من برنامج مستقبلي

أوسع يترادف في العقل والوجدان العراقي مع فكرة صنع عراق قوي معافى.

ويفترض هذا البرنامج أيضا بلورة الأولويات التالية:

1. التربية والتعليم،
2. التصنيع،
3. العلم والتكنولوجيا المدنية،
4. الحرية الفردية والاجتماعية،
5. الثقافة المدنية.

وفي حالة تمثل التيار الصدري لهذا الاتجاه، فانه ملزم بتغيير اسمه بالشكل الذي يجعله مرادفا في الوعي السياسي والاجتماعي للعراقيين مع حزب الدولة والأمة. فهو الأسلوب الضروري للتحول، بما في ذلك في ميدان الأيديولوجية من اللاهوت المذهبي والديني إلى الناسوت العراقي والعربي. ومن خلاله فقط يمكن تذليل جبرية الزمن والارتقاء إلى إرادة التاريخ. لاسيما وأنها المهمة التي لم يقم بها أي من الأحزاب السياسية العراقية في مجرى نصف قرن من الزمن، أي في مجرى الانقطاع "التاريخي" عن التاريخ الذي ترافق مع انقلاب الرابع عشر من تموز عام 1958 وحتى الاحتلال الأمريكي للعراق عام 2003 .





ميثم محمد طه الجنابي (بروفيسور في العلوم الفلسفية)

محل الولادة: العراق

أستاذ العلوم الفلسفية (الجامعة الروسية – موسكو)

m-aljanabi@mail.ru

الأعمال العلمية المنشورة - نشر المئات من الأبحاث والدراسات الفلسفية والفكرية في المجلات المتخصصة والثقافية العامة

أهم الكتب المنشورة

1. التراجيديا السياسية للطوباوية الثورية. دمشق دار الأهالي.
2. علم الملل والنحل . ثقافة التقييم والأحكام. دمشق. دار عيبال.
3. الإمام علي بن أبي طلب– القوة والمثال. دمشق - بيروت دار المدى.
4. التالف اللاهوتي الفلسفي الصوفي (أربعة أجزاء) دار المدى.
5. "الإسلام السياسي" في روسيا، الرياض، مركز الملك فيصل.
6. الغزالي، ميلين، نيويورك، (بالروسية).
7. الإسلام السياسي في جمهوريات آسيا الوسطى الإسلامية، الرياض، مركز الملك فيصل،
8. روسيا - نهاية الثورة؟، دار المدى، دمشق.
9. حكمة الروح الصوفي (جزءان)، دار المدى، دمشق.

10. اليهودية الصهيونية في روسيا وآفاق الصراع العربي اليهودي، دار العلم، دمشق.
11. الإسلام في أور آسيا، دار المدى، دمشق.
12. العراق ومعاصرة المستقبل، المدى.
13. اليهودية الصهيونية وحقيقة البروتوكولات، دار الحصاد، دمشق.
14. العراق ورهان المستقبل، دار المدى، دمشق.
15. الحضارة الإسلامية – روح الاعتدال واليقين (ج)، دار المدى.
16. جنون الإرهاب المقدس، بغداد.
17. المختار الثقفي – فروسية التوبة والثأر، دار المرتضى، بغداد.
18. أشجان وأوزان الهوية العراقية، بغداد، دار ميزوبوتاميا.
19. فلسفة الثقافة البديلة، دار ميزوبوتاميا، بغداد.
20. العراق والمستقبل – زمن الانحطاط وتاريخ البدائل، بغداد، دار ميزوبوتاميا، بغداد.
21. هادي العلوي-المثقف المتمرد، بغداد، دار ميزوبوتاميا، بغداد.
22. حوار البدائل، دار ميزوبوتاميا، بغداد.
23. التوتاليتارية العراقية- تشريح الظاهرة الصدامية، دار ميزوبوتاميا، بغداد.
24. فلسفة المستقبل العراقي، دار الكتاب الجامعي، الإمارات العربية المتحدة.
25. الفلسفة واللاهوت عند الغزالي،دار المرجاني، موسكو، (بالروسية).
26. فلسفة الهوية الوطنية، دار ميزوبوتاميا، بغداد.
27. الثورة العربية الجديدة – ثورة المستقبل، دار ميزوبوتاميا، بغداد.

منشورات دار ميزوبوتاميا

أشجان وأوزان الهوية العراقية	د . ميثم الجنابي
فلسفة الثقافة البديلة في العراق	د . ميثم الجنابي
الدنيا في أعين الملائكة	محمود سعيد
فيبرا العراقي	د .علي الحسناوي
العراق والمستقبل	د . ميثم الجنابي
حزن منفى	عبد الكريم هداد
العراق ما بين الحربين _رسائل ضابط	امل بورتر
نبوءة متأخرة	الفريد سمعان
الثقافة القانونية للمهندسين والمقاولين	د . حميد لطيف الدليمي
هادي العلوي .. المثقف المتمرد	د . ميثم الجنابي
براثن الليل	حميد كشكولي
تركواز	عادل حمود
مرايات ونده	حمود كميد
عرس الماي	كاظم غيلان
العراق _ حوار البدائل	د . ميثم الجنابي_ حاوره مازن لطيف
جيش الخراف	محمد السيد محسن
الامام علي _ القوة والمثال	ميثم الجنابي
جزئيات في السيرة النبوية	صالح الطائي
ثلاث مدن ، ثلاثة اسابيع في الصين	سعدي يوسف
لون الليالي صعب	كاظم غيلان
أوثان القديسيين	سعدون محسن ضمد
محاولة في فهم شخصية الفرد	محمد مبارك
مدخل للشعر الشعبي	عبد الكريم هداد
مير بصري .. سيرة وتراث	فاتن محيي محسن
معاوية الثاني والتشيع في البلاط	محسن خزعل المحسن
هادي العلوي.. الكثقف المتمرد ط2	ميثم الجنابي
المثقف التابع	مازن لطيف
مثقفون عراقيون	مازن لطيف
التوليتارية العراقية	ميثم الجنابي
منهجية البحوث العلمية	د . لطيف الدليمي
الطائفية السياسية ومشكلة الحكم في	د . عبد الخالق حسين

طريقة في الغناء	ريسان الخزعلي
فلسفة الهوية العراقية	د . ميثم الجنابي
بغداد ذلك الزمان	عزيز الحاج
ثورة وزعيم	د . عبد الخالق حسين
حانة الاخرة	عبد الله المهندس
ذاكرة الرماد	كاظم الواسطي
اسعادة ماركس	سعد محمد رحيم
غواية الساعات	عدنان الفضلي
راحلون وذكريات	عزيز الحاج
يهود العراق	مازن لطيف
عناقيد النار	حميد السعدون
الطاغية والطغيان في العراق	شامل عبد القادر
تمرات العبد	ضياء حميو
تجارب دنماركية	ضياء حميو
الطائر والنخلة	ريسان الخزعلي
الاعمال الشعرية الكاملة	سلمان داود محمد
رحلات تمفصلية	عزيز الحاج
اليسار الصعب	كاظم حبيب

دار ميزوبوتاميا _ طبع _ نشر _ توزيع

العراق _ بغداد_ شارع المتنبي

البريد الالكتروني : mazinboox@yahoo.com

Mazin24@ymail.com